



رابطة الأدب الإسلامي العالمية

مكتب البلاد العربية

٣٠

المفسدون في الأرض

(مجموعة قصصية)

فاطمة محمد شنون

المجموعة القصصية الفائزة بالجائزة الأولى في

مسابقة الأدبيات في رابطة الأدب الإسلامي العالمية

العبيكان
Obékan

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

شنون، فاطمة

المفسدون في الأرض./ فاطمة شنون.- الرياض، ١٤٣٠هـ

٢٠٨ص؛ ١٤ × ٢١سم

ردمك: ٣-٩٢٩-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١- القصص القصيرة العربية - السعودية

أ- العنوان

١٤٣٠/ ٨٣٩٠

ديوي ١٩٥٣١، ٨١٣

رقم الإيداع: ١٤٣٠/ ٨٣٩٠

ردمك: ٣-٩٢٩-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ / ٢٠١٠م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

العبيكان
Obeikan

التوزيع: مكتبة

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

العبيكان
Obeikan

الناشر: للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص.ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحتويات

٧ ألم هو أم غضب؟
٩ رمادي الذي أبعث منه
١٣ قهوة ونشرة الأخبار
١٩ الحقيقة والكلمة
٢٥ المؤؤودة
٣١ المفسدون في الأرض
٨١ ما وراء الخندق
٩٣ اللامنتمي
١٠٩ رحلة إلى
١١٩ حكمة من صبي
١٢٧ من مذكرات هشام بن عمرو بن الحارث
١٣٥ فتاة من كوسوفو
١٤١ البشارة

- ١٤٧ قابيل يلحق بهابيل
- ١٥٣ الشاعر والشمس والقلم
- ١٥٩ الشجرة
- ١٦٥ الصهيل
- ١٧٣ قطيطة
- ١٨١ ذو العينين السوداوين
- ١٨٧ خانتك عيناك
- زوجة قائد:
- ١٩٥ ١- أبو محجن الثقفي
- ١٩٩ ٢- سلمى بنت حفصة
- ٢٠١ ٣- سعد بن أبي وقاص



ألم هو أم غضب؟

إنه كلاهما...

لأن العزيز يتألم في زمن الصغار،

وألم العزيز غضب...

وغضباً ينبغي أن يكون أم عملاً؟

إنه كلاهما...

لأن المؤمن يغضب إذا تطاول الفساد،

وغضب المؤمن عمل...

فيا أيها الألم...

كن غضباً

ويا أيها الغضب...

كن عملاً

لنبني الحياة كما أرادها الله

عندما استخلفنا في أرضه؛ لنعمرها

بشرعته ومنهجه...

رمادي الذي أبعث منه

حالة ما بين النوم واليقظة، قبل صلاة الفجر، متاهة لزجة مرهقة، قلما أستطيع منها فكاكاً...! أحاول ترتيب أفكارى وتحديد أولياتي لهذا اليوم... هذا إذا لم يكن ثمة حدث مسيطر، ينتزعني بعنف من تلك الحالة، ويستبد بي، مندفعاً من مرجل رأسى فقاعات كبيرات، تتزاحم ثم تتفجر على السطح، مطيحة بكل شيء...

أتململ... أتجئ إلى الركن الأثير الوثير... الاتصال بالله... حدة تزاحم الأفكار وتداخلها تخفت قليلاً... لكن الذكر يبعثها من جديد، وتضج أقوى، فأقوى... وأكتشف أن الفقاعات الكبيرة قد عادت إلى الانطلاق والتفجر على السطح بصخب وتحذّ...

امتحانات الأولاد النصفية... المجموعة القصصية التي أضع لمساتها الأخيرة... البرنامج التلفازي الذي ينبغي تخصيص وقت لمتابعته... العيد القادم، وشؤونه التي لا بد من الحد الأدنى منها، والهاجس الموجع القاهر... ما يجري من حولنا...

وأهرب شلاء عاجزة إلى ربي من جديد... أسبح ضد تيار الهموم والأفكار، والمشغل، والفرح.. هذه الكلمة الممسوحة الوجه! يخيل إلي أحياناً أنها لا بد أن تكون موجودة بطريقة ما.. أبحث عنها، وقد أحنّ إلى لحظاتها اليتيمات المتباعدات كشجيرات الصحراء...

الضباب يحاصرني في عملية ترتيب أفكارى... أبحث عن الأوليات من جديد.. عن الأكثر أهمية.. تنبجس صور مما كانت تبثه الفضائيات ليلة أمس في مخيلتي، كما تتوالد القطرات من بين شفطي النبع، تفور وتتراكب وتسيل وتنداح بحيرة، ثم بحرًا طامياً لا حدود له...

الشباب المحمول على نقالة، يسرع به صهاينة في لباس عسكري، وصوت المعلق يقتلع أجزاء وراء أجزاء من قلبي: ثم تبين أن الرشاش لعبة أطفال، وأن الفتى مختلّ العقل...

شجرة النخيل الضخمة، التي أحسست برغبة قاتلة في عناقها، والبكاء حتى الموت وأنا أحتضن جذعها.. شجرة النخيل في بغداد، ووميض القذائف ودويها يتقاطر على الصدر كالحراب المسمومة المتشفية..

جليد العجز ولهيب التمرد يصطرعان حتى التفاني.. لماذا أنا عاجزة من فعل أي شيء؟ طبعاً ليس لأنني امرأة.. فليس من أعدم رجالاً بأحسن مني حالاً.. الاستسلام واقع أمقته وآباه، ولكنني أعيشه، أعيشه برغم مقتي وإبائي ورفضى.. وتفتلي أحاسيسى من جديد.. عشرون مرة كل صباح تفور تلك الأحاسيس، وتضح تلك الأفكار.. لا بد أن في إمكانى أن أفعل شيئاً.. مادمت مكلفة فلا بد من فعل شيء...

وتصدع روعي: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، ومن قاع المخيلة القصي يلوح شبح فكرة مقبلة، فأهرع إلى ردمها بكل ما يزدحم بالذاكرة، ولكن عنادها يهزمني دائماً، وينتصر للسؤال القاتل: أو لسنا بمؤمنين؟! ذلك كلام الله، كلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. فما ذاك؟!

أتقلب.. في مضجعي الشائك الجاف.. أحس طنيناً فظيماً في
أوردتي كلها.. وأهرب مخدرة في محاولة عفوية لإنقاذ الذات.. أفزع
إلى ملجأ «ما يجب».. علي أن أكون عملية، أن أقوم بعمل ما، أي عمل
كان أفضل وأجدي من هذا الاحتراق المجاني غير المجدي...

هكذا أبرر هربي من أفكاري، التي بلغت حدّاً من الإيلام لم أعد
أطيقه.. الامتحانات، وما يتطلبه العيد الوشيك.. هناك استعدادات
ينبغي الفراغ لها.. وتحاملت على غطاء مرجل شعوري، أحكمه بكل ما
أملك من قوة، وأنا أمزج مرارتي، ما يسعفني شهد الأحلام من متعة
جلب السعادة إلى أسرتي، وابتسامة الفرحة إلى أولادي...

الوح، بدمعة تغور، حتى تشطر القلب شطرين، للشباب المحمول
على النقالة.. لشجرة النخيل في بغداد.. لإيماننا وكوننا الأعلىين.
وأنهض؛ لأمارس القهر اليومي.. لأصنع حلوى العيد!



قهوة ونشرة أخبار

خيوط الشمس الأولى تتسلل عبر زجاج واجهة المطبخ، ومؤشر الفرن الصغير يصرف الثواني تبعاً لإعداد كوب الحليب الصباحي.. المقاعد الحمراء، والخزائن الجوزية توقظ دماء الشعور، وذكريات الجدوع الهرمة في غابات فاس العتيقة.. وعساليح شجيرة العنب، التي تتدلى من إفريز الباب المفضي إلى الشرفة، تعب الشمس الوليدة، بنهم يبعث النشاط والهمة.. وعلى المنضدة الصغيرة ينتظر كراس وقلم، وإناء مكور، تصور منه زهيرات بيض وحمرة. إنه الصباح كما أحب، وقتي.. وقت القلم...

صغير الفرن يؤذن بغليان الحليب. استللت الكوب، وأضفت إليه ملعقة من القهوة المحضرة، مظهر الرفاهية الوحيد الذي أصر على الاحتفاظ به.. توضع في المكان عبير حميم.. نظرت إلى الساعة، وأنا أجلس إلى المنضدة، السادسة والنصف.. موعد موجز الأخبار، مؤشر المذياع عن يساري مثبت على إذاعة لندن، قاطرة الكذب كما أدعوها، والإضاءة اللطيفة تجلو لعيني سطح المنضدة الأحمر، بكراسه وأزهاره وكوب الحليب.. والقلم.

الرشفة الأولى غالباً ما ترافقها دقائق (غرينتش)، فلا بد أولاً من إطلالة صغيرة على العالم.. أعرف سلفاً ما يحمله إلي المذياع،

على الأقل أعرف أنه سيكون مؤلماً.. فقد أعطيتي مواصلة الاستماع خبرة بأساليب محطات البث المختلفة وغاياتها، وتذكرت ما قيل ويقال لي دائماً: لا تعولي كثيراً على ما تسمعين وتشاهدين.. كلهم يكذبون، ويشوهون الحقائق لخدمة أغراضهم.. ومللت ترديد الجواب.. أعرف ذلك.. لكن الاستماع إلى الكذابين والدجالين يولد لديك خبرة في معارضة الكذب بالكذب، والدجل بالدجل، فتصل، نتيجة لتحليلك الشخصي، إلى شيء من الحقيقة. ثم إن المتابعة في هذا الخط تبرز الحقائق مهما بذل في طمسها من جهود...

صوت المذيع الرخيم ينطلق بالتحية والتمنيات بصباح سعيد! احتضن القلم براحتي؛ استعداداً للحوار.. ربما بعد موجز الأنباء، فقد لا تكون ثمة أخبار جديدة...

بدأت الضربات تسوطني، ورشقات الشراب الحارة تفقد طعمها شيئاً فشيئاً، ثم تتحول إلى مرارة تلذع.. وخيوط الشمس الجريئة البريئة تتوغل في، ثم تصطمم بالجدر الداكنة التي تصدها عن القلب والروح.. تتزاحم الأحداث في مخيلتي، تتعانق وتفترق، تتقارب وتتباعد، وتتصاف وتتفاعل.. وترن عبارة زوجي في أذني: يعملون على بث السم، وإحباط العزائم، وتكريس القهر. وأتجاوز السم والإحباط والقهر.. أستند بقوة إلى ظهر الكرسي، وكفائي تحيطان بكوب الحليب.. يا لمرارة الجرعة! لقد تبنت ذات زمان قول إيليا أبو ماضي:

قُلْتُ: ابْتَسِمْ، لَمْ يَقْصِدُوكَ بِكَيْدِهِمْ

لَوْلَمْ تَكُنْ مِنْهُمْ أَعَزُّ وَأَكْرَمًا

لكنه لم يعد يعزيني.. فالكيد يستفحل، والجسد الأعز الأكرم مزقته المؤامرات والأحقاد والقذائف.. وكما في كل يوم تتراقق قهوة الصباح والقهر.. أشعر شعوراً خفياً أنه الانتقام.. الاستماتة في إخماد شعلة شاء الله أن تضيء الدنيا، فيغرق الباطل والظلم في الظلام. أسلحة الباطل كلها تستهدف حملة تلك الشعلة.. تستهدف كل من ينهض بقبس منها مهما ضؤل...

تراخت راحتاي عن الكوب الدافئ، وأغمضت عيني.. أيتها الشعلة، التي لا يقضي على توهجك الزمان! ما الذي يحول دون حملك بيدي هاتين؟! ماذا يمنعني من التسلح بشعاع منك؟!؟

المذيع يتحدث عن أطنان القنابل التي تحصد الأرواح، وتسحق ولأند العقول وروائع الإبداع، وجنى العرق المبارك الثمين.. الموت.. هل من الحكمة أن نقدم المزيد من الأرواح طُعماً لنيران الباطل، والمزيد من الشموع والشموس في معابد الظلام؟!؟

التحرق إلى وضع الأمور في نُصبها، الهيام الموجع المضني بالانتصار للحق، بالثورة حتى التفجر في سبيل حمل شعلته المخوفة المهجورة.. كل ذلك يقوض جدران القلب، ويملاً ساحة الفكر والوجدان بهم كُثيف وإحباط مقيت...

يا شعلة الحق، كيف أحملك دون أن تعاجلني قذيفة، فتسقطين من جديد! وبين الآيتين اللتين تجسدان عذابي وحيرتي: ﴿فَلَا نَذْهَبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ و﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ كانت سكينه النفس تموت وتحيا عشرات المرات في اليوم.. بين ثقل الأمانة

والتحرق المضمني إلى امتلاك القدرة على الاضطلاع بها، وتوق النفس إلى نعمة السكينة والأمان في وعد الخالق، أن لا خوف على أوليائه ولا هم يحزنون.. بين هذي الشاطئين تضطرب بروحي وجسدي أمواج كالجبال، تجمع إلى الإحساس بالخطر الوعد بالأمن والأمان...

ليس من السهل التوصل إلى قرار.. ليس من السهل تطبيق الاستنتاج العتيد: أي عمل أفضل من الاستسلام إلى صراع العواطف والأفكار.. أي عمل!! ويحضرني قول رسول الله ﷺ: «الشأن أعجل من ذلك» وأستنتج ببسر، والشأن الآن يقتضي العمل المجدي الفاعل، وبلا انتظار.. أفضل ما يسمح به ذلك الحال...

أفضل وأجدي!.. ما هو الأفضل والأجدي، وكل ما أؤمن به على شفا حفرة من الخطر، وربما الفناء؟.. ما هو الأفضل والأجدي، كيلا تضيع دقيقة من العمر تصلح لعمل ذي شأن؟

كل الأعمال التي يمكن أن تجدي سرايية، يلف الدروب إليها الضباب.. كل صخرة أو جزيرة أو شاطئ، يلوح للعين، زلقاً لزجاً، ملآن بالحراب، مسدودة إليه السبل، مغلقة دونه الأبواب. والصبر على لعق الجراح، وردم الحفر، ورتق الخروق إعدام بطيء، محسوم النتيجة.

الساعة الملتصقة بالجدار تطرف ببلادة تحمل الحريق إلى الأعصاب.. وأنا مقيدة اليدين والرجلين واللسان، طليقة الفكر والروح والرغبات.. أتلهب وأترمد، ينضج جلدي، وأبدل جلدًا غيره.. ولا أفكر أبدًا في الالتحاق بركب مدمني المورفين، الذي يتعاظم يوماً إثر يوم، حتى غدا تيارًا في مثل عرض المحيط، تقاومه القطرات المتمردة،

متشبثة بصخور الشيطان باستماتة، ترى في كل لحظة الدماء النازفة من جراحها، وهي تتخافق على سطح العباب الهادر، خيوطاً حمراً ناصلة، سرعان ما تتشتت وتتلاشى، فلا يكاد يصدق أنها نرف القلوب، من لا تتاح له رؤية الأجساد التي تمجها بصبر واحتساب.

وأجرع ما تبقى من شرابي، وأسكت المذيع، وأغوص حتى الغرق في الصفحات، فتشرب احتراقي، كأنها لم تشرب منذ الأزل.



الحقيقة والكلمة

فرغت من الصلاة وقرآن الفجر مبكرة هذا الصباح، وكنت أعالب كأبة شفيفة تدفعني إلى ما يشبه الانكفاء على الذات، وتجمع شتات كياني الدائم التبعثر هنا وهناك، فأتلذذ بدفء أشبه ما يكون بالألفة الداخلية أو بهجة اللقاء اللطيفة...

فتحت النافذة على الفضاء الرمادي، الذي ما زال يغتسل بمطر بليد منذ عصر أمس.. كان رأسي فارغاً، وهي حالة من العبث والتسيب لا أرتاح إليها.. ولم أجد الجاذب المعهود الذي يدفع بي إلى ركني الأثير في مطبخي، حيث اعتدت أن أخلو بأوراقتي وكوب القهوة، فأمسك بروح يومي التي أحيا بها ما تبقى منه...

نظرت في ساعتني، واتجهت بلا حماسة إلى التلفاز.. تمام السابعة.. فلألتقط نشرة أخبار من محطة ما.. طفقت أستعرض محطات البث المتاحة.. رسوم متحركة غريبة الوجه واليد واللسان.. متظارف يستعرض أمام جمهور مسطح بطر مشاهد يفترض أن تضحكننا، كما تضحكه.. مغنٌ منتفخ يسوط الذوق، يعتصر حنجرة مخنوقة تسوط الأذن...

أخيراً ها هو ذا مذيع يقرأ نشرة أخبار، متلجلجاً بأخطاء مثيرة مخجلة.. راح يرجمني، بلا رحمة ولا هوادة، بما يجري هنا وهناك من

أحداث، وبما صرح به فلان، ونفاه فلان.. واستسلمت إلى الحجارة التي اعتدتها، فلم أعد أرفع يداً لدرئها عن مقاتلها مني.. كان ثمة كل شيء إلا الحقيقة، تلك الضالة التي لم يعد ينشدها إلا من رحم ربي.

وفوق الحجر المعمد بكل دم ذكي، رحت أحرق إلى جثتها.. كانت هامة تماماً، ومنتشرة تماماً، وقد تبدت كل روعتها التي لم يعد يخشى أعداؤها تجليها، وكانت الدماء لا تزال تسحّ من جداولها الباهرة، وترسم خطوطاً تتلوى وتتقاطع وتتعانق على سفح الصخرة الصقيل اللماع.. وكان الجميع يبكون، وهم يغمسون أصابعهم في جديولات الدم، ويلعقونها بنذالة وجبن وقذارة وتشفّ...

أما أولئك الذين يحترقون أسفاً، فقد كانوا قلة، وكان دخان قلوبهم يتصاعد إلى عنان السماء بصمت، ودون أن يراه أحد.. لأن الحقيقة وحدها ترى مثل ذلك اللهب، وقد ماتت.

وفي هجمة يائسة مفاجئة، تشبه ما يتخلل النزع من صحوات، انتفض الوجدان متمرداً: ما الذي يجبس لساني؟! ما الذي يكبل يدي؟! أي ثمن، يمكن أن أدفع للكلام، أكبر من ذلك الذي أدفعه للصمت!! وتفجرت في فوديّ نار حقيقية، وهممت أن أفتح النافذة وأصرخ.. ثبطني أنني لا أملك حنجرة قادرة، وأن صوتي يحشرج في حلقي، كلما حاولت رفعه.. وأن نتيجة عملي هذا معروفة سلفاً.

قمعت انتفاضة الوجدان، واستنجدت بكل ما أعرف في نفسي من تصميم وعناد حيال ما أوّمن به، فقد أخضعتني ضرورة اتخاذ قرار ممكن التنفيذ إلى زجر أحاسيسي، بل التكر لها، جاحدة أفضالها

على اليد والقلم.. علي أن أفرغ لخطة عملية، تضع حداً لهذا العذاب اليومي.. لن تنتهي جلستي هذه كما انتهت غيرها.. لا بد من الاهتداء إلى ممر سالك.. لا بد من الانتصار للحقيقة.. حبيبي الصريخة.. كان يمكن أن تتقدها الكلمة التي أكتم، وستتقدها، فهي إحدى أنثيين يمكن إحياء مواتهما.. الحقيقة والأرض.. ما أكبر الشبه! وما أصعب اكتشافه!

انتابني شعور كذلك الذي ينتاب من يتعرض إلى كابوس.. نضال مستميت عبثي ضد أخطار غير محددة المعالم.. مغالبة غير مجدية، ولكن لا بد منها، لعباب غامض وطام، يمتد وينجزر في كل ثانية.. وكما في الكابوس لم يكن من الصراخ بد، وكان الصوت بركاناً يزلزل الأعماق، لكنه ما إن يصل إلى الشفتين حتى يخمد ويغدو عاجزاً أشل، ثم يرتمي بلا حراك، فوق رماد القلب المتفطر خيبة وإحباطا.. إن لم ينطلق ذلك البركان، إن لم يقذف بحممه ورماده، فسيدمرني لا محالة.

كلمة الحق، لا أملك سواها.. أفضل الجهاد.. فلأحاول بشكل مجد أن أجد لها طريقاً إلى النور.. لأحاول للمرة المئة أن أنطلق بتلك الشلاء العاجزة، رهينة المحبسين الصدر والورق، المخلفة التي تفيض عينها من الدمع إن لم أجد ما أحملها عليه.. وأستعيد في محاولة عنيدة متأنية مغامرات كلمتي تلك في سبيل رؤية النور، علني أكتشف سبب إخفاقاتها، فأعالجها أو أتجنبها.. كانت تسافر في صناديق البريد، إلى هنا وهناك، ثم تختفي إلى الأبد.. أنفق الجهد والمال في ترقبها، ولا تطل برأسها قط..

كدت أشك في قدرتها، وأفقد ثقتي في حكمي عليها، كدت أخجل من تطاولي واغتراري بها، وأومها على تجملها الذي ضللتني، لولا أن هذا التصنيف المفضوح الذي تمنح بموجبه الكلمات جوازات السفر قد عرّى الحقيقة أمامي.. فكل ما كتبت، وإلى أي اتجاه أرسلته، رأى النور عاجلاً أو آجلاً.. إلهي، الكلمة التي أتحرق إلى قولها، أبت إلا أن تظل حبيسة بين روعي والورق. فإذا ما سافرت يوماً، فإلى حيث لا يبقى منها إلا الانتظار.. فالذكرى.. فالنسيان.

أشتهي أن أقول: ما أغبى الذين يحاصرون الكلمة! كيف السبيل إلى إفهامهم أن كل أنواع الزنانات والقضبان والقيود، التي ابتكروها عبر تاريخهم الطويل المخزي، لا تملك أن تحيط بها، أو تكبلها.. وعلى الرغم من إيماني بصواب هذا الكلام، لا أجرؤ على إطلاقه، إلا على أنه أمنية شديدة الإلحاح، لو كان لي عليها سلطان لحبستها؛ حفاظاً على ماء الوجه.

لماذا يكون لأعداء الحق جند يتربصون بكلمته، ولا أرى لأنصار الحق جنداً ينصرونه؟! أين هم؟! أين كلمتهم، وقد استبد الباطل بالعالم أو كاد؟! مادمت أعشق تلك الكلمة، ويدمر نزوها في سلاسل الشفاه سكينتي، ويؤرق تمردها خلف أسوار الصدر رقادي، فلا بد أن ثمة الكثير ممن يشاركونني ذلك العشق، وذلك الغليان، وذلك الأرق، فأين هم؟! أين يختفون؟ كيف السبيل إليهم، وكل هذه الحواجز والعقبات والأشواك تعترض الطريق؟!!

ما كنه تلك اليد السوداء الحديدية، ذات الأصابع الأخطبوطية الخفية التي تمتد في كل اتجاه، وتتسلل إلى كل زاوية، تسعى إلى إطفاء

الحقيقة في صدر الكلمة، فتتحري باستماتة كل شعاع منها، وتطبق على عنقه، فيتحجر اللهب، وتتجمد الحياة!! من صاحب تلك اليد؟! وإلى كم من الزمن والجهد والمثابرة والتصميم احتاج، حتى وصل إلى هذا الذي وصل إليه؟!

من هذا الذي يقف وراء الباطل بذلك الحرص، وذلك التكاليف.. ويتخذ له ذلك الجيش الذي يغطي عين الشمس من الخدم المسخري الأيدي والأعين والأسنن، الممسوخي الذوات، الراسفين في أصفاد العبودية، كل حسب وجهه ولونه وهويته، دون أن يكون لهم من الأمر شيء، ومن الأجر إلا الخسران المبين؟!

كيف السبيل إلى أن يتمرد هؤلاء؟ كيف السبيل إلى أن يعلموا الغيب فلا يلبثوا في العذاب المهين؟ كيف السبيل إلى تحرير أيديهم، ونزع غطاء أعينهم، وحل وثاق أسنتهم؟

الشأن أعجل من ذلك، فإلى متى، وقد بدأت العيون تزيغ، والقلوب تبلغ الحناجر ونظن بالله الظنون؟ إلى متى، وقد ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وضاقت علينا أنفسنا، وأيقنا أن لا ملجأ من الله إلا إليه! إلى متى، والدم والعرق، ولآلئ الإبداع، وثمار العلم، تحرق كل يوم، على مرأى ومسمع من الدنيا، ومن المنطق، ومن الحق، ومن نواميس الكون المدوسة المهانة؟! والكلمة في صدري قنبلة موقوتة، توشك أن تقوض أركانه وتمزقه؟!

يا أيها الذين أحبهم، يا أيها الحقيقيون، يا ساكني الكلمة التي لا يسمعها ولا يقرؤها أحد، يا أيها الذين تصنعون الحياة، كما أرادها

بارئها، جميلة نقية خيرة.. يا أيها المكنونون، كالألئى في ظلمات الزيف والباطل والكذب والعبث والتسيب والضلال.. منية الروح ولبانة النفس أن أكون معكم، أن أكون مثلكم، أن أكون منكم.. لكنني لا أستطيع أن أمدّ جدائلي إليكم، ولا أعرف، ولا أقوى على الوصول إلى عوالمكم النبيلة القاسية، التي حبستم فيها أنفسكم لجهاد الضلال والزيف.

لكنني أستطيع أن أفعل شيئاً.. شيئاً صغيراً يشبه ما تصنعون.. شيئاً فيه نفحة من إبداعاتكم، وبعض من نكهة ثماركم، فيه شعاع أعدكم أن أجاهد ليصير شمساً.. سأتحرى ما غفلت عنه العيون الخبيثة، لأجمله وأجوده، سأبحث عن كل مجيد لأربت كتفه، وسأسعى إلى كل جميل، آخذ بيده في دروب الكمال، وسأمضي إلى كل حقيقي؛ لأكون في صفه ضد الزيف والضحالة. سأسخر كلمتي لمن يعرقون ويسهرون ويعملون، لمن يحبون الخير والحق، ويحملون كلمة الله على بصيرة وهدى، ويكرسون وجودها في الأرض حقاً وعدلاً ونوراً.



الموؤودة

الدمع الصلب الحارق المتجمع خلف أسوار العينين، وفي أغوار الصدغين، يجذبني عن العالم، يسد الطرقات على الأصوات إلى أذني، ويزحم أقطار رأسي، ويسوط فوديّ.. أزدرد حجارة اللعاب، فأحسها ترجم القلب والأعصاب، وتسدد لكمة عنيفة إلى رأسي فأترنح، وأتهاوى على أقرب المقاعد.. أهدق في السرير، حيث كنت قبل قليل.. أراها هناك مسجاة بلا حراك.. كل ما فيها فاتن، يسحر القلب. لكنها جثة هامة...

شلني رعب ليس غريباً عني، فهو يعتادني في مثل هذا الموقف.. كم مرة تستطيع امرأة أن تنتزع أنضر وأحب جزء من كيائها، وتهصره بمثل تلك الوحشية حتى الموت، ثم تحفر له حفرة في الرمال، وتهيلها عليه، وتهض بما تبقى من كيائها، كشبح يغادر قلعة غامضة مهجورة في السراب، متجهاً إلى حيث لا بد أن يكون كيائنا حقيقياً، يعيش بين الناس كما يعيشون! لقد جرب مرات عديدة أن يصرخ فيهم: لست سوى شبح.. لست سوى كيان وهمي، فارغ إلا من الهواء.. ليس لي ملامحكم، ولا قلوبكم، فكيف يفرض علي العيش بينكم؟ سيخافني أطفالكم، على الرغم من أنني لا أملك قلباً شريراً، ولا نيات خبيثة، ولا مطالب لي سوى أن تدعوني وشأني، سيخافونني؛ لأنهم لا يرونني؛ لأنكم علمتموهم الخوف مما وراء أسوار المجهول.

أحس، حقاً، أنني شبح فارغ اللب.. كل ما كان في داخلي وأدته مرة إثر مرة، وكان لا بد أن أفعل؛ لأنني لا أستطيع أن أوّمن له أسباب الحياة.. ومع ذلك، فأنتم لا تدعونني قاتلة، وقد يدعوني بعضكم قديسة! فالقديسة، في عرفكم، مقطوعة الصلة بالحياة، فارغة القلب، شبح أسطوري لا جسد في ثيابه الفضفاضة الغريبة.

الجسد الذي انتزعته قبل أوانه من أعماق نقطة في كياني يشفّ شيئاً فشيئاً، وهو ما يزال مسجى على وسادتي.. أرعيني مرآه يتحول إلى ما يشبه البلور أو الفقاعة، ويتصاعد إلى الأعلى متسامياً مع الهواء، منسأباً من النافذة المشرعة.. أرعيني أن يرى خارجاً من نافذتي هذا الكيان الغريب المريب، الذي لن يتعرفه أحد، ماذا سيقول من يراه؟ إنه لا يشبه أي شيء يعرفونه.. قد يتهمونني بالسحر.. ولم لا؟ أأست شبحاً؟ قد يكونون محقين.. هل هم محقون؟!

التشاغل بالسؤال الذي لا جواب له لم يدم طويلاً. الألم هو الذي يدوم، والألم عذاب ملتهب، لا يفلح معه التشاغل...

ارتعش كياني كله.. أحسست أنني قد أعجز هذه المرة عن حمل جثة وليدتي الخديجة إلى أحضان الرمال.. كنت، كلما وقفت هذا الموقف، أشعر بمثل هذا العجز، لكنه الآن أكثر طغياناً، وأنا أمامه أكثر ضعفاً... لم أجروء بعد على اتخاذ القرار، لكنني الآن واثقة من قرب اتخاذه. فهل أتحمل تجربة جديدة؟

انتابني الرعب من نفسي، وتملكني الاشمئزاز.. هذه البيضة الرائعة، التي نمت في داخلي، وشاركتني الأنفاس والدم والأحلام،

ترقد مطفاةً، تنتظر أن أحملها إلى مئواها في العدم. وربما كنت أفكر في أخرى متجاهلة أنها، في الأغلب، تلقى المصير نفسه... لا بد الآن أن أتخذ القرار.

اقتربت من فلذتي، مددت إليها ذراعي، حملتها، حملت عذاب وإحباط البشرية كلها.. كانت باردة.. هوائية.. لا جرم لها ولا وزن، كانت شيئاً لا يسمى.. كانت حزني وفجيعتي وألمي الذي بات لا يحتمل.

أردت أن أضمها إلى صدري، أعيدها إلى حيث كانت قبل قليل، لكنني لم أفعل.. لا يمكن أن أفعل.. لم أعد الرحم الصالحة لاحتوائها، فأنا لا أملك لها أسباب النمو، لتولد وترى الحياة.

تلفتت، وتسربت من بين ذراعي، وتهادت متموجة في فضاء الغرفة.. انصرفت ذراعي على أضلعي كالعصي، واندفعت مستميتة أستعيدها من الفراغ، حيث تسبح.. لم أقو على التسليم بأنها ماضية، وبأنها انتهت، وإن كنت ما أزال أراها، وربما ألمسها.. مضت قبلها فلذات، شيعتها، كما أفعل الآن، لكن الألم الآن أكبر.. لقد قررت أن تكون آخر مآسي في هذه الحياة...

حتى العذاب الذي يرافقنا طويلاً، نشعر بشيء من الوحشة، عندما نودعه آخر مرة؛ لأن جانباً من حياتنا وكياننا يتوارى إلى الأبد، سابقاً ما تبقى منهما إلى الحتم الآتي لا محالة.

جفت الدموع.. لم تعد تتفجر لامبالية بي.. ربما لأن الأشباح لا تبكي.. أجل ينبغي ألا أبكي.. فلا يمكن أن يبكي شبح؛ لأن الدمع دخان يطلقه حريق، وما في أعماق الشبح ما يحترق...

تطاولت باسطة ذراعي، وجعلت أدور حول نفسي مضطربة، في أرض الغرفة، أحاول الإمساك بها. ظلت تهوم فوق رأسي، وفوق متناولي، وهي تبثسم لي ببراءة موجعة.. بدت كأنها تلهو، لم تكن تتألم، فما كنت بالأم التي يؤسف لفراقها.

قد تكون رقت لتوسلات عيني، وقد تكون تعبت، فأمكننتني من نفسها.. ارتمت بين ذراعي وصدري، كخنجر مفلول، في كف قاتل متشفئ لييم، فحملتها بعيداً عن صدري، حملت أجمل ما في حياتي، كما يحمل المرء كتلة من شوك يتحاشى أن تمس جسده...

لا معنى للبكاء.. لا بد من إنجاز العمل.. لم يعد يعذبني ويمضني أنني ماضية إلى دفن أجمل ما في حياتي.. هل من الضروري أن يملأ الحياة شيء جميل؟! لن يكون ذلك ضرورياً بعد الآن.

أخيراً ولد العذاب القرار الذي خلته أقسى ما في الوجود.. ما هو أقسى منه سهل ولادته.. ثم إن الأشباح لا تحتاج إلى ما يملؤها، جميلاً كان أوقبيحاً. وهذه ميزتها الكبرى.

الرمال الأصفر الحار، كمجروش الزجاج، أسال الدماء من بين يدي.. تشققت أصابعي، والحفرة ما تزال قليلة العمق، والجسد الأثيري يتضوع من حولي، فيصيبني الذعر من تلاشيه في الهواء قبل إنجاز الحفرة، وكان ذعراً مزدوجاً، الذعر مما أقوم به، والذعر مما قد يحدث.

لم يكن من حسم الموقف بدّ. حتى لو أن الحفرة غير كافية فلا بد من إنجاز العمل، فأنا أفرق من عودة الألم المثبط المقعد.. وقراري الوليد ما زال ضعيفاً، أخشى ألا يحتمل وطأة الموقف.

انصاع الجسد الأثيري الرائع إلى يدي المجرمتين غير مباٍلٍ.. فوضعتة في الحفرة، ورحت أهيل الرمل فوقه مهتاجة، ممعنة في الضغط براحتي وبأصابعي، كأنني أتشفى في منظر الجراح وطعمها.. كانت روعته تتسرب من بين حبات الرمل، فأهرع إلى دفنها بوحشية وهلع.. ورحت أطلق صراخًا عشوائيًا بكل ما في كياني من تباريح الألم الدفين.

الأشباح تصرخ.. لعل الصراخ هو كل ما تفعله.. مزق الصراخ حنجرتي.. مزق قلبي.. أنفاسي تشظت كجذال شديد الجفاف يحترق. ومع آخر شعاع من الجمال الذي دفنت اختفى صوتي تمامًا، دفن هو الآخر..

كانت رهبة وحشية تتربص بي، في الأفق، وفي الأرض، وفي السماء، وفي داخلي الخاوي كوادٍ مخوف سحيق، وكان عالم لا حدود له من العبث وعدم الجدوى يفتح لي أبوابه على مصاريعها...

هل يصلح هذا العالم للحياة إذا ما دفنا آخر أشواقنا؟!

وقت طويل مضى، وأنا جاثمة أمام الجذث الصغير.. أعماقه القصية في مثل سعة الخيال والتصور، لكن جدرانها تميل بشدة متقاربة، حتى تتجاوز حافته، وتلتقي في نقطة واحدة.. في الصميم من الروح...

الحدود القصوى والقصية للألم والعجز، كان لا بد من أن ترد دخان احتراقي إلي.. أحسست بالدموع تقطر على نحري وركبتي المدماة، وتسيل ممتزجة بالسائل الوردي النازف.. ملح الدمع ألهب

الجراح.. كم من الدمع يجب أن أذرف لتلتهب الجراح إلى درجة النسيان؟.. لتجرف كل ذلك الألم!

تلفت.. كان كل ما في وما حولي صحراء...

هنا كانت تبدأ نقطة الرجوع في كل مرة.. وهومت في الأفق البعيد
ذكريات مبهمة.. ذكريات! كيف؟ وقد كانت ذات يوم العمر كله!!

وكما في كل مرة، وكأن الأمر لا يختلف وسابقه، برزت من
أقصى نقطة في الأفق. وانداحت كعادتها تماماً، فغمرت الرمال كلها،
وأغرقت الجذث الصغير، وطمت حتى غمرت ركبتي.. أحسست أنني
أفقد توازني ووزني، وأنا محمولة على صفحة شفافة رقراقة، معجزة
بنعومتها وقوتها وطغيانها.. مال جسدي المتهالك الضامئ إلى القرار
مستسلماً، وصمت كل شيء.. الجراح والدموع والألم.. صمت كل شيء
مستسلماً مثلي.. إلا همسها الدافئ الرحيم.

وتلفت من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، فلم أرَ غيرها إلا
السماء.. غمرتني بجراحي ودموعي، تخللتني إلى أعماق ترزح تحت
أطباق متصلة من الألم والدمع والفجيرة.. أرغم سلطانها المهيمان
الرؤوف كل شيء، وخلا بالروح خالصة نقية، كما أبدعها خالقها.

كنت في حاجة إلى الأمان والدفء، إلى ما هو فوق الأشواق
والأمانى، إلى ما هو فوق الرغبات والحاجات، إلى رحمة ربي التي
تداركتني عندما أقفرت دنيائي إلا من الفجيرة والعذاب...



المفسدون في الأرض

قبل أن يصبح العالم كما نعرفه، وفي منتصف ذات ليلة، حيث كل شيء صامت ونائم، ومن أعالي المرتفعات المشرفة على الصحارى المقفرة، كان باستطاعته أن يميز بقعة أكثر سواداً، تضطرب زاحفة إلى الشمال الجغرافي، بقعة صامته تتقدم بدأب يلفت الانتباه. حتى إذا ما بدأت الشمس تتناول من خلف قوس الأفق، لتكشف تلك الأصقاع، التصدقت بالأرض، وتململت فكادت تغمرها الرمال، وتموتت حتى سوّيت بالصّفرة الطاغية، ولم تعد عينه تستطيع التقاطها، فانصرف إلى الاستمتاع ببهاء الشمس يغمر الدنيا، طارداً صورتها من الذاكرة: كيلا يفسد متعته بذلك الجمال البهي.

فإذا انسحبت الشمس وغابت، حتى عاد السواد يملأ الأنحاء، بعثت تلك الحشرة للزجة، كما دعاها، واستأنفت بإصرار مثير الزحف الصامت الدوؤوب.

كان طبيعياً ألا يمضي ليله كله في مراقبة حشرة، فقد كان يأسره جمال القمر، وسحر النجوم، وكان يجد لذة كبيرة في إحصائها، وتخيل مشاهدة ممتعة من تشكيلاتها، وابتداع أشكال أكثر إمتاعاً... وكان له الحق في ذلك، فقد كانت النجوم آنذاك أجمل منها اليوم، كما كانت الأرض في حالة أفضل، إذ كان في مكنة الطموحين أن يفكروا في مشروعاتهم الخاصة، دون أن يحسبوا حساباً لموضعها من النظام العالمي...

أكثر من مرة قرر أن ينزل من معتصمه؛ ليحدد موضع تلك الحشرة المريبة، ويكشف حقيقتها، لكن أمورًا أخرى كانت تحول دون ذلك. والحق أن أكبر تلك الأمور وأصعبها كان القدرة الهائلة لتلك الحشرة على التخفي والتستر، وإصرارها على التماوت، مادام شيء من خيوط الشمس، مهما ضؤل، مسلطاً على مكانها.

أثارت الحشرة فضوله، ثم غضبه، فهو بين الحين والآخر كان يعيد حساب المسافة بين النقطة التي رآها فيها أول مرة، وموقعها الحالي، فيرى أنها قد تقدمت بشكل ملحوظ، كأنها تسير إلى غاية محددة.. وكان يحدث نفسه: لن تستمر في التقدم حتى تسقط في الفراغ المخوف المجهول، فهي لا تبدو بلهاء بهذا القدر...

كان في وسعه أن ينزل من مرقبه في النهار، ليقف في نقطة محددة، حتى إذا ما حلّ الظلام، وبرزت الحشرة المثيرة، وراحت تتقدم، اصطدمت به، فاستطاع اكتشاف ماهيتها، لكنه كان يقول لنفسه: ولم أفعل؟ لم أكلف نفسي هذا العناء الذي قد ينطوي على خطر؟ إنها تتقدم فقط.. وماذا في ذلك؟! حتى لو كان هذا الأمر لا يروفتي، فإنه لم يثبت لي يقيناً، أنه ينطوي على شيء من الخطر. ولم التفكير في الأمر، وليس في وسع تلك الحشرة الصغيرة أن تفعل شيئاً يذكر؟! فلتتحرك كما تشاء. فليست أكثر من حشرة ليلية بشعة تزحف، وليس علي إلا أن أطأها بقدمي.. متى رأيتها في طريقي.

والحق يقال، فقد شغل صاحبنا بأمر جسام أخرى، غير مراقبة النجوم، والتغزل بحوريات البحار والغابات، فكان طبيعياً ألا يهمله كثيراً،

مع أنه قد لفت نظره في حينه أن الحشرة قد توقفت في نقطة الوسط من أراضيها، وإن كانت لا تزال تختفي بطريقة لم يستطع إدراكها، كلما أشرق الشمس.. ولعلها أراحتته بذلك من القلق بشأن وجهتها.

شيئاً فشيئاً صار يلاحظ أنه قد صار لتلك الحشرة موضع ثابت في ذاكرته، وإن كانت في الذيل من قائمة الاهتمامات، التي غدت تشمل القتال والشعر وملذات أخرى، فما مدّ عينيه في ليلة أنس أو وحشة، إلى ذلك المكان إلا اصطدمتا بها.

زمان طويل مضى، والحشرة، كما اعتاد أن يدعوها، تهرب من ضوء النهار إلى حيث لا يدري، فإذا جنّ الليل راحت معالمها تتضح شيئاً فشيئاً، كأنما يلدها الظلام..!

ولا يعرف متى غيرت عاداتها تلك، فهو لا يتذكر آخر مرة طلع فيها النهار على مكانها دون أن تظهر.. إنها الآن موجودة، والشمس تملأ الأرض كلها، وأمس كانت كذلك.. وتساءل: منذ متى وهي تظهر في وضوح النهار؟! ولم يهتم كثيراً؛ لأنه لم يجد للجواب أهمية.. فهي ليست أكثر من حشرة كريهة في أسوأ الأحوال!

وذات يوم فطن إلى تطور جديد في حجمها، لقد غدت أكبر! مع ذلك لم تنزل غير ذات بال.. حتى لو أنها غدت.. وحشاً.. فالأرض مملأى بالوحوش.. حقاً إنه لم يرق قط وحشاً يمثل ذلك السواد المنفر، ولكن هذا لم يخفه، فهو أشجع من أن يخاف وحشاً جاثماً دون حراك، ولا سيما أنه مازال يعتقد أن في وسعه التخلص منه متى أراد.. بل إنه سيفعل حتماً.. متى اقتضى الشأن ذهابه إلى هناك.

ما أسرع ما تضاعف حجم الحشرة! حتى غدت وحشاً حقيقياً، وإذ ذاك كان لا بد من التفكير في السبب، فالوحوش لا تصل عادة إلى مثل ذلك الحجم.. لا بد أنه وحش لا يعرفه، أو أنه لم ير مثله من قبل، وحش ينمو بشكل غير مألوف. ولم يخطر بباله أن يتضخم أكثر من ذلك، فضلاً عن أن يخطر بباله أنه قد يتضاعف عشرات، بل مئات الأضعاف، وإلا كان أحسّ بالقلق.

بعد مراقبة فضولية طويلة مشوبة بالدهشة، اهتدى إلى سرّ ازدياد حجم الوحش الرابض، إنها هيولات سود، تتجمع من هنا ومن هناك.. وصدق باهتمام، بذل أول مرة جهداً في اكتشاف ما يجري. كان، من قبل، إذا لم يحرق احتقى المشهد، قبل أن تلتقط عيناه تلك الدقائق السود الكريهة، تتقاطر إليه بكثافة.. كانت تبدو له من مرقبه العالي كأفواج الذباب، لكنها لم تكن تتشتت قط، بل تتقارب وتتقارب، حتى تصل إلى حيث الوحش، فتلتصق به، وتهدأ حركتها إلى أن تتلاشى.

مع ذلك لم يبلغ به القلق حدّاً يدفعه إلى دوام المراقبة، كان قلقاً فحسب، فهناك شعور راسخ، لم تخطر بباله مراجعته.. ليس في الأمر خطر، وحتى لو كان ثمة خطر، فتجاوزه لا يحتاج إلى استعداد، ولن يكلف أكثر من أن تقتضيه الحاجة.. وحتى لو أن هذا الوحش قد بقي هنا، حتى لو أنه ظل يتضخم إلى ما لا نهاية، فهو لا يعدو كونه وحشاً جاثماً بلا حراك.

كانت أوقات سعيدة وجميلة كثيرة قد مرت به، لم تنغصها مراقبة الوحش الملتصق بالأرض، حتى غلب على ظنه أنه لا يتحرك، أو أنه دائم النوم، بل ربما كان ميتاً. ومن يدري؟ فقد يكون مخلوقاً كالنبات،

ينمو، ولا يتحرك. وأسعده أنه لم يعكر صفو أوقاته بالنزول من معتمسه، ومحاولة اكتشاف كنه ذلك الكيان الأسود البشع، فضلاً عن محاولة طرده أو محاربتة. فهذا هو ذا وكأنه ليس موجوداً، يربض بصمت، كأحد الجبال، على شاطئ البحر. حقاً إن مظهره يمحو الكثير من جمال ذلك الشاطئ اللازوردي المضيء، ورواء ونضرة تلك المرتفعات الخضراء، التي يختلط بريقها ببريق المياه، لكن ذلك لا يستحق بذل عناء، فالجمال ما زال الغالب والمسيطر.

وشياً فشيئاً، بات يلاحظ، في متاهات وسنه، أن تلك البقاع قد بدأت تستحم بنور بهي، من نوع مختلف عن نور الشمس أو القمر، ينبعث من حيث لا يرى أو يعرف، ثم ينتشر على الأرض هناك، وينداح كمياه البحر البيضاء المضيئة، فيغمر كل ما حوله. وعلى هدى ذلك النور اكتشف بلامبالاة عجيبة، أن للوحش جرماً أكبر مما تسمح به الرؤية من بعيد، فهذا هي ذي خيوط النور الوهاج تمتد في كل اتجاه إلى مسافات بعيدة، أما باتجاه الوحش، فهي تنكسر، وتنعكس شبه عمودية، مشكلة جداراً عالياً، يسمح ضباب البحر بتمييزه، وهو يكاد يتلاشى، قبل أن يبلغ أعلى ظهر الوحش الهائل.

حمل ذلك شيئاً من الرهبة والهم إلى قلبه، وأحس على نحو مبهم أن هذا قد يستمر، قد يتحول ذلك الكيان الكريه إلى شيء ثابت.. إلى جبل..! خفف ذلك التصور من حدة توتره، فإن جبلاً يضاف إلى جبال المنطقة لن يكون شيئاً إلى هذه الدرجة، ولا سيما عندما لا تكسوه الخضرة، ويلف قمته الضباب.. لا بد أنه سيتحول إلى جبل، فلا يتكسر النور هكذا إلا على الصخور.

قبل أن يستطيع إقناع نفسه بتفسيره لانكسار النور على خاصرة الوحش، بدأ أمر مسل يفرض نفسه، كان مسلياً ومريحاً.. فقد بدا النور كأنه يتصدى للوحش.. لقد كان مصيباً في عدم تنغيص متعته بالنزول إلى هناك، فها هو ذلك النور الذي لا يعرف كنهه يتصدى له..

«يتصدى»! ليست الكلمة الصحيحة، فالوحش هو من يتصدى.. على كل حال.. النور يبدو قوياً ووهاجاً، ومنبعه يتسع شيئاً فشيئاً، وأشعته تصل إلى المزيد والمزيد من بقاع الأرض، حتى إن بعضاً منها قد وصل إليه، وإن هو لم يتجاوز ذيول المرتفع الذي يعتصم به.

هذه القياسات والمراجعات شغلته عما جرى، وفي لحظة خاطفة، هناك.. وعندما عاد ينظر، كان الوحش يجثم فوق بؤرة النور..! لقد فاتته اللحظة الأكثر أهمية: هل صعد الوحش فوق النور، أم تغلغل النور تحته؟!؟

أحس بقشعريرة ورهبة، وانمحت تماماً كل تصوراته السابقة، واستسلم إلى الواقع المذهل.. أي كيان بغيض هائل الذي يراه؟! عن ماذا سيسفر هذا الواقع الجديد؟!؟

تساؤلات دغدغت عقله، خرشت صفحة بحيرة تفكيره الصقيلة الساكنة، لكن دفء الشمس في الاعتدال حمل إلى جفنيه نعاساً، وجد فيه ملجأ من حالة غير مريحة.. فتمطى واستسلم إلى النوم!

لم يكن نومه مريحاً، فقد راحت أحلام غير جميلة تنغص عليه صفورقاده.. حلم بالوحش الذي لم يبق وحشاً.. بالنور الذي أحس فجأة بالقلق عليه.. بأولئك الذين يقتتلون في الفلوات المضيئة البهية، عند

أقدام مرتفعة.. حقاً إنها اشتباكات صغيرة متفرقة، لا تستحق الذكر، لكنها تحمل إليه الامتعاض نفسه الذي سببه تداخل ذلك الوحش البشع بالنور هناك.. لماذا تحدث كل هذه المنغصات المملة هنا؟!

عندما فتح عينيه بعد نوم طويل، حولهما، كما اعتاد أن يفعل منذ زمن بعيد، إلى حيث الوحش والنور، واتسعا شيئاً فشيئاً لتطرد آثار الوسن المرهق الذي يشمله.. وفاجأه ما رأى.. كان سطح الوحش الداكن يتشقق وتبرز منه حزم النور.. يتشقق أكثر فأكثر.. وحزم النور تبرز أكثر فأكثر..

زفر بارتياح، وهز رأسه بثقة.. مرة أخرى يكتشف أنه على حق؛ لأنه لم يدع ذلك الوحش «التافه» يقض مضجعه، لقد كان يعلم.. «يعلم»!! ليس تماماً.. «يحس».. أيضاً ليس تماماً.. لعل الفكرة قد ولدت الآن.. لا بأس، فهاهو ذا من يتولى القضاء على الوحش، قام عنه بالمهمة محاربون أشداء، مازالوا يمزقون ظهره بدأب؛ لفتح المزيد من الشقوق التي يتسرب منها النور.. هل يمكنهم القضاء عليه؟ هل يذيبه النور؟

لبث طويلاً يراقب بفضول: الأمور تحلّ من تلقاء نفسها.. أو هكذا تظهرها المسافة الشاسعة.. أمر كان لا بد أن يحدث بشكل ما.. عن ماذا ستجلي تلك المعركة؟!

لقد انجلت.. من تلقاء نفسها، وهو ما توقعه تماماً، الوحش تفجر.. تبددت شظاياها السود، حتى تلك التي لم تتصهر، وتغلل في شقوق الأرض، نبذت في كل اتجاه، وسقطت في رمال الصحارى، وعلى سفوح الجبال، وفي مياه الأنهار والبحار، وتقاذفتها الرياح في كل اتجاه..

الآن عاد إلى ذلك المكان رواؤه، والنور البهي أطلقه المحاربون من جديد في كل اتجاه، أطلقوه خيوطاً مديدة وجميلة، تشف عن صفاء البحر وفضته إلى الغرب، وذهب الرمال إلى الجنوب والشرق، وبريق ثلوج القمم في الشمال.

جمال الأرض، وبهاء النور المقدس، والأنفاس الطويلة العميقة الشافية، كل ذلك انعكس على أحلامه الواسعة راحة وسلاماً، فتحول بعينيه عن تلك البقاع بعد زمان طويل، وراح ينشد الجمال في مكان آخر.. كل شيء عاد جميلاً، بل أجمل مما كان. واطمأن قلبه في مضجعه: لن يصيب تلك الأرض سوء.. إنها قلب الأرضين وأجملها.

وعاد يدمن التأمل.. الرمال الذهبية المصقولة، ذات بريق ذهبي يخطف الأبصار.. كشمس الغروب.. كالمسائل العسلي الذي يقطر مضيئاً صافياً من قفز تلك الحشرات الطنانة عاشقة الأزهار.. حقاً إن أولئك يقتتلون دائماً، هنا وهناك، ينغصون عليه متعته بذلك الجمال، لكن الرمال سرعان ما تبتلع جثثهم المتفسخة. ثم يولد آخرون غيرهم، يكونون غاية في الجمال، قبل أن يعرفوا كيف يقتتلون.. يقولون: إنه لا بد من ذلك.. لا بد!.. هم أدري بشؤونهم، ثم إن ذلك يجب ألا يخدش تلك الصفحة الذهبية الصقيلة الرائعة..

والآن، وقد طال به الزمن، واعتاد ما يراه ويسمعه، نسي تماماً ما كان وما حدث. وكما لم يستطع قديماً اكتشاف أول مرة رأى فيها شبح البقعة السوداء، التي قدمت إلى القلب من أرضه، ثم تحولت إلى وحش بغيض، حاربه النور وفجره، ونثر أشلاءه، فابتلعها رمال الصحراء،

كذلك لم يتبين متى بدأت تلك الشظايا السود الدقيقة تبعث من الرمال، وتتقوّل وتتشكل وتتراص، وتعود حشرة لزجة، تماماً كتلك التي بدأت زحفها ذات يوم من الجنوب.

أحسّ بالامتعاظ والسأم.. وأثار ضيقه أنه قد يشهد تكرار أحداث ليست ممتعة.. فما هي ذي الحشرة السمجة تظهر من جديد. وقرر، كواجب ثقيل، أنه يجب وضع حدّ لهذا، وتساءل وهو يتمطى..: هل ينزل إليها فيطوّها؟ ثم غلب على عزمه أن يبقى في مكانه، فلن تفعل أكثر مما فعلت من قبل. فلتقم في أي مكان، ولتتضخم كما تشاء.. ثم لتغدّ وحشاً كالجبل، ولتتشبث بالأرض.. أي سلالة من الوحوش تلك!! إنها كالليل، مهما طال فلا بد أن يطرده نور الشمس. وقد طردها من قبل هناك، ولا بد أنه سيطردها أينما أقامت.

وابتسم شديد الإعجاب باستنتاجه الذكي، الذي يضمن له لذة النوم، وصفاء الأحلام، فمهمته الأولى أن يرصد الأحلام في أقوال جميلة.. إنه العمل السامي الجدير بصاحب تلك الأملاك، المتربعة في القلب من الأرض.. فليحدث ما يحدث، فكل شيء عابر.

هذه الاستنتاجات لم تمنعه من تقعد الحشرة في زحفها فوق الرمال، فهو كشاعر، يمتلك نفساً لطيفة، وشعوراً مرهفاً، يجعلانه محبباً للصفاء، كارهاً للبقع والحشرات المؤذية، متحياً الفرص، أو مترقباً ذلك النور الذي يمحوها، أو السيف الذي يقصمها.

أخيراً استقرت الحشرة.. كان ثمّ الكثير من النخيل والناس، في صفحة مترامية من الرمال. هذه المرة تغلغت بين جذوع النخيل،

وتمددت كالهلام للزج، فافتрشت الأرض، حتى لم تعد تشفّ دوائر الخضرة المتراسة عن صفرة الرمال، بل عن سواد الحشرة.

وتساءل: هل تغدو وحشًا هنا كما غدت هناك؟ واستنتج مجددًا بحصافته، أن ذلك الوحش الهائل الذي مزقه النور قد تحولت مزقه إلى وحوش صغيرة، اختارت لها أماكن متفرقة من الأرض. ولم يسوّه كثيرًا أن أرض النخيل كانت إحدى تلك الأماكن، فالنخيل يعلو ويزداد خضرة، على الرغم من أن الأرض من تحته يكاد يغطيها تمامًا السواد البغيض، وعمّا قليل سيطول السعف ويغلظ أكثر، فيعفيه من رؤية كل أثر للبقعة تحته.

الأهم من ذلك كله، تلك التحركات التي راحت تبرز أكثر، فأكثر في منبسطات الرمال.. لقد ازداد أولئك الذين يقتتلون عددًا، وراحت أرض النور على ضفاف النهر المتلألئ تعج بالمحاربين القادمين عبر البحار، وتخوم الصحراء الشمالية تعجّ هي الأخرى بالمحاربين القادمين من خلف الجبال..

فكر، وهو يتشاءب: أبناء الرمال يقتتلون، ويقرضون الشّعر، ويتوالدون وهم محصورون في تلك الصحراء التي تحيط بها البحار والجبال والأعداء من كل جانب دون أن يخطر ببالهم غير التنافر والتناوب، لا يجمعهم إلا ذلك البيت العتيق الذي تحفّ به الجبال السود، يأتونه رجالًا، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق؛ ليدوروا حوله ويشهدوا منافع لهم.. هناك، وعندئذ فقط، لا يقتتلون...

إنه لا يذكر متى قام هذا البناء المربع المغبر الجليل، فهو ما انفك يراه ويراه.. كأنه أقدم شيء فوق هذه الرمال.. ومن أعماق الذاكرة

الموغلة في الزمن، استطاع أن يستحضر تلك القلة المظفرة، التي تحدت متاهات الرمال ولهب الشمس، تاركة وراءها رواء السواحل، وخصب السهول، وخضرة الضفاف؛ لتقيم عند هذا البيت مع أبناء الرمال المتأحرين أبداً، والذين ما انفكوا يجيئون من فلواتهم، في مواقيت ثابتة، ثم يتفرقون ليستعدوا للاقتتال من جديد..

وانتبه إلى أنه بات كثير الانشغال بأبناء الرمال، وذلك البيت.. وعندما كانت الحشرة اللزجة القابعة هناك تعود إلى ذاكرته، كان ينقب بعينه من مرقبه بين النخيل المتطاول، ويحدّ بصره ليكتشف أنها لا تزال هناك، تتسع وتتداح متطامنة ملتصقة بالأرض، تظلل نفسها بالمزيد من النخيل والخضرة والسيوف والذهب!! لتخفيها عن عينيه..

وفي كل مرة من تلك المرات التي كان يتذكر فيها البقعة البغيضة كان أبناء الرمال ينتزعونها من ذاكرته.. ليس انتزاعاً تاماً.. فهو يدرك على نحو مبهم أنها هناك.. وأنها، وإن لم تفعل شيئاً ذا بال.. لطحنة سوداء قبيحة تعكر بريق السهول ونضرة النخيل، حتى وهي مختفية تحت قشرة الخضرة التي تلتحفها.. ليست مختفية تماماً.. فهو يستطيع رؤيتها بوضوح تام إذا ما أمعن النظر وأحدّه..

وكان يتهرب من هذه الحقيقة، ويحاول الاكتفاء بنظرة سطحية غير منقبة؛ أملاً في قطع خيط ملحاح من القلق، يتلولب بإصرار سمج أمام الصور في المخيلة، والأفكار في الرأس. ولم يدّر في خلد التساؤل عن سر خيط القلق ذاك، كل ما يحضره ذكريات عتيقة شبه مندثرة

عن الوحش البغيض الذي دكّه النور على السواحل الغربية. ولا يستطيع أن يمحو من ذاكرته أن تلك البقعة الهائلة بعض من شظاياها، وهي، وإن كانت لن تتحول إلى وحش آخر، جزء منه، بكل ذكرياته السلبية.. والحق أن استكانتها هكذا، وجرمها الذي لا عمق له أرجعنا القلق إلى المرتبة الثانية في زخم ذلك التغيير الذي راحت عينه تلتقطه وتميزه في حياة أبناء الرمال، فقد لاحظ أنهم بدؤوا يخرجون عن رتوب حياتهم شيئاً فشيئاً..

حقاً إنهم ما انفكوا يقتتلون بالسيوف وبالأسنة، لكنه يستطيع القول اليوم: إنهم يتكتلون. تكبر تجمعاتهم النادرة المتناثرة في قلب الرمال، ولا سيما تلك التي بين الجبال السود، حيث يقوم البيت العتيق، وفي أرض النخيل حيث تنداح تلك البقعة البغيضة..

تجمعات أبناء الرمال الصغيرة تزداد وتتضح، وتزحف بخطوط شبه ثابتة، وإن كانت ناصلة وصفيقة، إلى أرض النور على شواطئ البحر المتلائي، وإلى جبال أقصى الجنوب الداكنة الخضرة، ذات المياه الثرة، وإلى المدائن العريقة الخصبة في أقصى الشمال.. أبناء الرمال لم يعودوا مسجونين في جزيرة الرمل.. مع ذلك، فهم ما انفكوا يقتتلون ويتفانون.. ووجد نفسه يتساءل: إلى متى؟!

أول مرة يعييه الإحساس بالزمن، وانتظار ما سيكون.. حالة غريبة وغير مريحة.. كان من قبل يقتصر على رصد الأحداث والتفرج بها، وإن لم يخل الأمر من بعض المنغصات والمسرات. أما اليوم، فثم شيء جديد يفرض نفسه، شيء مرتبط بما تحدثه تحركات أبناء الرمال..

لم يعد نومه هنيئاً.. تواتر صحوه بشكل مفاجئ على ضجيج أبناء الرمال.. لم يكونوا صامتين من قبل، لكنه كان قد اعتاد على صخبهم القديم، فهو يغفو ويغط في نومه وهم يصخبون، ثم يهدؤون ثم يعيدون الكرة في منامه وتحت سمعه وبصره.. أما الآن فقد تبدلت الحال.. تبدل نوع الصخب.. أيقظه من نومه مرات ومرات.. فلا بد إذاً أن يقلقه الأمر، فهو يشعر بطريقة ما أن ثمة ما سيحدث.. أبناء الرمال مقبلون على أمر ما، كل ما يراه يشير إلى أن تلك القفار ستشهد حدثاً يبذل الحياة فوقها.. لم يقلقه الأمر على الرغم من كونه قد أتعبه، ونغص عليه شطحات الخيال الراتبة المتأنية، وأثار فيه فضولاً مرهقاً، يقضي إعمال الفكر بعد طول ركود.

حدس شديد القوة راح ينبض في فكره الفتى الناشط.. لا بد من حدث ما.. حدث غير المعارك الفعلية والكلامية، لا بد من حدث يوقظ أبناء الرمال، ذلك الشيء الذي استيقظ فيه، ذلك الذي دعاه همماً.. كان يحمل شعوراً سلبياً لكل ما ينغص عليه استرخاءه ودعته. أما اليوم، فثمة شيء جديد يغزوه.. إنه يتلذذ بذلك الهم الذي ينال من متعته الأزلية. حتى الصداق الذي يحمله إليه إعمال الفكر بات يستعذبه!! لذاذاته باتت من نوع آخر.. باتت أكثر عمقاً وأدوم أثراً، أحس أنه يحمل شعوراً مبهجاً ومنشطاً، شعوراً بتقدير ذاته وقيمتها، وأن هذه الذات لا بد أن تفعل شيئاً يليق بما تحظى به من قدرات.. إن الهواء الذي يتنفسه، والشمس التي تتخلله جديران باستخراج شيء ما من كيانه، إن لوجوده غاية.. ولا بد أن يكون شيئاً ما غير المتفرج والمنفعل، لا بد أن يماهي النور والهواء، أن يعطي كما يعطيان.. إنه قادر على ذلك.

تحسس عينيه.. جربهما في رؤية أبعاد أخرى غير تلك التي كانتا تقفان عندها، فوجدهما مطواعتين. رأتا ما لم يتوقع أن تريا، وتحسس ذراعيه، فوجد فيهما قوة لم يكن يتصور وجودها.. إنه شعور جديد يرهقه ويحرقه، لكنه يجعل لكل شيء من حوله معنى آخر.

ها هو ذا اليوم مخلوق جديد، تعصف به فتنة اليقظة، وشباب الفكر وتألّقه.. إنه انقلاب دعاه إلى إعادة التفكير في كل شيء بشكل عاصف.. لم يقل: لماذا أنا هنا؟ لم يقل: لماذا أقصر همي على المراقبة؟ ولم يقل: كيف؟ بل لم يقل شيئاً قط. لقد نهض من مرقبه، واقتلع قدميه مرة واحدة من برج التأمل الكسول، قاطعاً بخطوة مصممة المسافة الشاسعة بين برجه وأرض أبناء الرمال.

عندما ثبت قدميه حيث اختار، إلى جانب البيت العتيق، كان كل ما هو هناك يشتعل ويتأجج. كان من أبناء الرمال من انصهر تماماً وشكل من جديد، فصار له منكبان عريضان قويان، وعينان متلاثلتان باصرتان، وقلب يشع نوراً بديعاً، ينتهي الطرف دون نهايات خيوطه.

لم يعد مراقباً.. تجند في صفوف ذوي المناكب والعيون والقلوب.. قفزة هائلة من ذلك المرقب النائي إلى تلك الأرض التي لن تعرف غير العمل المهتدي. كانوا قوماً آخرين، ينسكب في دمائهم نور من السماء، يتنزل على رجل منهم فيمسك به ثم يفتح قبضته، فينطلق منها ذلك النور الخارق إلى أعماق كل القلوب، يبثها الرسالة: العمل المخلص في سبيل الخير..

ولأنه كان هنا الكثير من القلوب غير الملوثة، ولأن فيها انبساط الصحراء ووضوحها وسطوعها، واتصالها بالأبد والمطلق، وإحساسها

الحي بالنقاء والحقيقة، فقد حملت نور السماء، وراحت تغرسه وتتعهده، وتزيح عن طريقه العقبات ليمتد وينداح، ويتخذ طريقه سرباً إلى الدنيا بأسرها.. كانت تلك القلوب مخلصه إخلاصاً موجعاً، ومتجردة تجرداً معجزاً، ولذلك صنعت المعجزات.

لعلنا لم نزل نذكر ذلك المرقب القديم.. لقد تخلى تماماً عن صفته تلك، صار جزءاً من حملة النور.. تشظى وسكن رؤوسهم وقلوبهم جميعاً.. استبدل بالمراقبة التدبير المسترشد بنور السماء. وأحس به الجميع، وراحوا يبتدون له التسميات.. هناك من سموه الوعي، وهناك من سموه العقل، وهناك من سموه الوجدان..

كان كلما اعتصره التعب جنح بخياله دقائق إلى مرقبه البعيد، الذي يكاد يتلاشى في أفق الذاكرة، ولا يزيد على ذلك.. لقد استبدل مغتبطاً وصب النقاء، والسعي المهتمي الهادي، بدعة التأمل والراحة وخفض الخمول..

أحس أنه على نحو ما قد اهتدى إلى سر الحياة، ولم يكن سرها ماءً في مهالك، عليه اجتياز الأخطار إليها.. كان كلمة.. ولم تكن الكلمة شيئاً جديداً بالنسبة إليه، لكنه اكتشف أنها كل شيء.. وبهذا الاكتشاف صار يملك قوة كالسحر!! قوة تختصر القوى كلها، وتوحدها لتطلقها هادرة جديدة بتغيير وجه الأرض..

صار همه الآن توطيد تلك القوة الخارقة، فقد أدرك أنه ليس الوحيد الذي أدرك سر الحياة ذلك. إن ذلك السر ليس طلسماً، ولا هو مكنون خفي، بل حقيقة راسخة متجلية حيثما وجدت من يبحث عنها، وينظر

في الاتجاه الصحيح إليها، ويحييها في القلوب.. ما أبسط، وما أعظم ذلك السر!! وما أجل من يهتدي إلى حمله وإحيائه!!

كانت البصيرة التي استيقظت ترى سر الحياة فوق هذه الرمال، فبدأ عجباً مهيباً كالمعجزات، ولكنه لم يكن غريباً أبداً. كان سر الحياة، لذلك فهو موجود حيثما وجدت الحياة، ومهمته الآن إيقاظه وبعثه..

كانت تعتريه حالة من الانسجام والرضا والتوهج، بلغ به ما يشبه الطرب، وهو يطير بكنزه المعجز إلى أماكن وقلوب قسية أو غريبة، ثم يكتشف أن ما معه ليس غريباً، وليس مبتدعاً، إنه موجود في صدور متفرقات، وعلى السنة مختلفة، إنه هنالك، وهناك، وهنا، وحيثما بحثت عنه.. قد يندر وجوده حقاً، لكنه لا يندم أبداً.

لقد حدث أن غدا تياراً كما هو اليوم، غدا كذلك في أماكن كثيرة من تلك الأرضين، وفي أزمنة مختلفة.. كما حدثت الناس قابس ذلك النور، الذي تطلقه يده المباركتان في القلوب.

ذلك التوهج.. تلك القمة من الروعة التي انسكبت فيه، كانت جديرة بالاستئثار بكل خلجاته، فراح يستمد منها قوة باهرة، لا تكاد تعترف بعقبات الطريق، بل تطؤها وتتخطاها، في خطوات أكبر بكثير من أن تتأثر بها. لكنه شيئاً فشيئاً، راح يبرز أمام عينيه مقابل راسخ، كاد يعفي عليه توهج السر الباهر، إنه ما يصر على تسميته بالضلال.. الهدى والضلال.. شاء أم أبى.

مرة أخرى يتوقف مذهولاً.. هذا هو إذا المفتاح، الهدى والضلال.. صراعهما الأبدي الملازم للحياة. ودون سابق إرهاب اتجهت عيناه إلى

أرض النخيل.. كان سطوع النور يكاد يخفي تلك البقعة المتأرضة في مغارسه المظلة.. ما تزال هناك!! وفي هجمة مفاجأة للذاكرة، استعاد مشهد ذلك النور الذي فتتها وشتتها في الآفاق.. ذلك النور.. تجلي سر الحياة.. كان يومها يتوهج هناك، كما يتوهج اليوم هنا، وحاول الضلال طمسه، فانتصر على الضلال.. وعاد الضلال يحتمي بالمخابئ، ويكمن ريثما يستعيد أنفاسه، ليتصدى للهدى أنى وجد، ومن جديد.

كل ذلك الضياء، وما تزال البقعة كما هي! يحتها النور، لكنه لا يقضي عليها تماماً.. حقا إنه الأقوى، ولكنها دائماً إلى جانبه.. بل هي لازمة لوجوده، بل تتقارض وإياه الوجود والضمائر والأرضين، كلما ازداد نقصت، وكلما نقصت ازدادت.. قد تعظم أو تضؤل أو تسوى بها الأرض، لكنها لا تختفي.

بذلك المفهوم راح يحدّ البصر إلى سواد أرض النخيل.. وهو يستعيد ذكرياته غير الواعية مع البقعة المؤرقة: كم هي عنيدة، وكم هي راسخة!! إنها جزء من سرّ الوجود.. ترى هل الوجود اليوم في مأمن منها؟ ربما.. فهو في أوج شبابه وعنفوانه.

بالتزامن تماماً وهذه الفكرة، خطر له أن معركة ستبدأ، أو أن الظلام يخطط لجولة جديدة في المعركة الأبدية بينه وبين النور. إن فكرة التصدي والعداء تتأجج لدى الأضعف، كلما رأى انتصارات خصمه.. قد لا يستطيع، أو قد لا يجد من الحكمة التصدي له، وهو في أفضل قممه، لكنه حتماً يبدأ التخطيط لذلك.

فتح عينيه بقلق.. فقد بدا له أن سطح البقعة يضطرب بتموجات عميقة، لكنها طفيفة لا تكاد ترى، لولا اهتزازات يشي بها بعض السعف

الغض.. وبدا واعياً كونها خطراً محتملاً، وإن لم يكتشف ماهيته، ولا موضعه مما يجري من أحداث.. الشيء الوحيد المؤكد لديه أنها شيء كرية.. أما ماضيها، وتاريخها الحافل مع النور، فقد تواریا في زاوية الذاكرة التي أباحها بكل قدراتها، لوهج الهدى المتفجر اليوم فوق أرض النخيل. حتى فكرة كونها تغلي في أعماقها لم تحز الكثير من همه.

وانقضى زمن طويل جداً قبل أن يأتي اليوم الذي بدأ يلاحظ فيه من جديد أنها تنمو وتكبر.. وداهمه قلق مفاجئ.. ومن جديد، وكما في المرة الأولى، لم يلاحظ متى بدأت تنمو.. إنها دائماً تبدأ عملها في الخفاء، حتى خيل إليه أنه مستمر، لم ينقطع، فهو لا حدود واضحة له.

هل تصطدم بالنور الجديد؟ استغرقه التفكير في الأمر.. كيف لم ينتبه من قبل إلى أن ذلك قد يحدث!! وهزته الفكرة.. إنها تعني الكثير.. وفي محاولة لاتقاء زوبعة، لا يرغب في التعرض لها، راح يقسر نفسه على تحديد أفكاره: ليكف عن استعمال الكلمات ذات الدلالات العامة. فما هو ذلك الكثير الذي تعنيه كلمة «تصطدم»؟ وكمن تلقى صفة منتظرة أقرّ باستسلام: لا بدّ من العداء.. وهو سيجرّ حتماً إلى المواجهة..

ومن مجاهل الذاكرة، التي أنعشها أصحاب الصحائف العتيقة، المقيمون في المدائن والواحات، أو القادمون من بلاد الجبال والأنهار في الشمال والشرق، حيث تأكل الخضرة والبحر شيئاً فشيئاً صفرة الرمل، وحيث تتفاعل، منذ أزمنة ممعنة في القدم، أحداث لا تنقطع..

من هذه المجاهل، التي أنقذتها صحائف الأولين من سطوة النسيان، انبعث تاريخ الظلام..

إنه يبحث له عن مكان.. وفي كل مرة يتصدى له النور، ويمحقه حتى تتمحي معالمه.. ثم تتوالى القرون، ويتخذ له منافذ إلى ممالك النور.. يتسرب متكرراً في صمت، ويتغلغل حيث استطاع ضئيلاً صفيقاً، لا يلبث أن يكبر ويغلظ. ويظل في كل أطواره يحلم بالتمكن في الأرض، وانتزاع السيادة فيها بالقضاء على النور..

هذا العناد، هذا القانون من قوانين الحياة، سيشهد اليوم تطبيقاً جديداً وحيّاً، هنا في أرض الرمال.. كيف لم يفهم الظلام عبر كل تلك الحقب أن انتصار النور حتم؟ لا بد أنه قد فهم، لكنه يحلم بأن يغير ذلك الحتم، ويسعى إلى ذلك مستميتاً، فلا يفلح أكثر من إطالة شقوته في ترقب انقضاء النور.

وألقى نفسه مدلّها، ينصهر كيانه في هتافه: أيها النور.. ستبقى منتصراً.

ودمعت عينا النور اعتزازاً وغبطة وإشفاقاً. وقطبت بحقد ماحق خيوط الظلام المتسللة من خلال السعف المغمور بالشمس، وتمعجت في غضب أكمه أبكم أصم. أما سر الحياة الأبدى الراسخ، فقد كرس بمهابة المسلمة القائلة: إنما المعول على القصد.

كان لديه آنذاك ما يستطيع عمله.. إن من الممكن ألا تظل أمانيه نيراناً في داخله، تحول جدران الظلام المحدقة به دون انبعاث شررها.. ولم يخطر بباله قط أن يفتر سعيه يوماً، فيسيطر الظلام، ويتصدى لكل ومضة يبثها احتراقه، فيعيدها إلى سويدائه، ويدمره بها.

وانطلق.. عرض على رسول السماء مخاوفه وقلقه.. وكما في كل مرة وجد الشفاء هناك.. وجد أن النصر لمن يسعى، حتى إذا ما تواكب السعيان، فالنصر للنور لا محالة. وجد أن مثل النور والظلام كمثل الآية الخالدة: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبُطْلُ إِنَّ الْبُطْلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

واكتشف أن السعي المواكب لسعي الظلام ليس سهلاً ولا بسيطاً، فهو وإن كان لا يدلّه على القوى العليا من خير وحق، يعمل باستماتة لتسخير القوى الأدنى لخدمة مآربه.. فميدانه اللذائذ الآنية، والمصالح المادية، ووسيلته إليها المحمّدة الوحيدة التي يمتلك، وهي الذكاء. وقد هداه إلى اختيار الطريق الأقصر، والركائب الأكثر راحة، والغايات الأقرب منالاً، والأشدّ بريقاً ودغدغة للغرائز ودنيء الرغبات.

السعي المواكب لسعي الظلام صعب وقاس، لكنه ممتع ومتاح.. وبلا تردد، فتح كل مصاريع كل الأبواب أمام كل التضحيات.. ما من شيء أضمن من سيادة النور، لذلك فكل التضحيات واردة وواقعة ولا بد منها.

وهكذا بدأت المعركة، بدأها الظلام، ولو لم يفعل لبدأها باسم النور.. المراقبة وحدها كشفت أسراراً، كاد يجن دهشة لعدم انكشافها من قبل.. تحت أي ستار واه يعمل ذلك السواد الرهيب!! وكالمصعوق.. كالمذبوح اكتشف أنه كان يعمل فقط في غفلة النور.. أنه لم يكن ليستطيع التحرك لولا تلك الغفلة.

وراح يضرب رأسه بمجمع كفيه.. سلاح الظلام بين يدي..!! لا سبيل له إلى تدمير النور إلا بغفلي وتقريطي!! يا للإعجاز!! ما أروع اكتشاف السر! وما أشد ما يفرع ويروع!

وتبصّر.. إنه لحق.. حيث يتهاون النور ينفلت من أغلاله الظلام.
حيث يخلي النور المكان يملؤه الظلام.. إنها سنة الله..

ولم يتهاون، اتجه بكل قواه إلى السواد يرقبه، لا من مرقبه البعيد، بل من هنا، من بين جذوع النخيل، وفوق الأرض التي يطؤها فيتعجج الظلام كالغبار اللزج في مواطئ قدميه، يفور ويخمد، ثم ينجر مرغمًا، ويلبث مكشراً عن نيوب الغادر المصفد. لقد أدرك أن كل غفلة له تعني الهلاك له وللنور الذي يحمل شعلته في صدره وفي يده.

راح ينعم ويترف ببهاء وسطوة وقوة النور، حتى خيل إليه أنه لا قائمة للظلام بعد اليوم. وأوشك أن يعيد النظر في كل ما توصل إليه من استنتاجات سابقة. فهذه الأرض تستحم بضياء أخاذ، يمتد ويتفرق فوق الرمال.. ضياء يختلف وذاك الذي تبثه الشمس في النهار، والقمر في الليل.. تلك الروعة المهيمنة بسطان بين تنمرد على ما استخلص من قوانين.. أي ظلام لا يبده ويدحره بهاؤه السرمدى!! إن شعلة خافتة تقهر جحافل من الظلام، وتدفع بها إلى الهرب والتواري. فكيف بهذا التوهج الفريد الهائل..

راح يكابد عشقاً لم يعرف له تسمية، وانصهر في بوتقة النور الباهر. فشعر أنه ازداد في داخله تألقاً وسطوعاً.. وتحسس منكبيه.. سيقويان.. أجل سيقويان على حمل ذلك النور إلى البعيد. ومدّ بصره إلى حيث كان يراقب من قبل، إلى قمم الشمال، وغابات الشرق، إلى بحار الجنوب والغرب، بل إلى ما وراء ذلك.. ولم لا؟ إن من أوتي هذا النعيم لا بد أن يتحرق شوقاً إلى إغداقه.

فجأة، وبسرعة لم تسعفه باستحضار ذاته المشتتة طرباً، انفجرت على صفحة الظلام فقاعة وثانية وثالثة، وسال منها سواد لزج بغيض. ولم يكذب يرفع حاجبيه دهشة ومفاجأة، وقد احتبست أنفاسه، حتى انداحت أمواج النور تسد الأفق، وتغرق السائل الأسود، وتعفي على آثاره تماماً.

كانت الفقاعات كصرخة ثاقبة في وادٍ سحيق ساكن، انبثقت بسرعة خاطفة، فاصطدمت بحوافه، وارتمت في القمر جثة هامة، وتراكت فوقها أطباق الصمت والسكون من جديد.. كأن شيئاً لم يكن..

وأمعن النظر إلى حيث انفجرت الفقاعات قبل قليل.. أيقون واهماً؟! وتلفت حوله، هل حدث هذا فعلاً، أم هي خاطرة عبرت؟! إنه بحاجة إلى ما يثبت له أن ما رآه كان واقعاً. ولم يكن غير تكرار ما رأى يملك أن يثبت ذلك.

تساوت رغبته في الوقوف على الحقيقة، وإيثاره التشبث بدوامه الحيرة المنقذة. ثم بدأت رغبته الأبدية في عناق الحقيقة تؤلمه.. أحس أن الثمن سيكون باهظاً جداً.. لكنه في قرارته كان واعياً أن هذا الثمن إن كان قد وجب فقد وجب منذ المرة الأولى، التي لم يستوعبها هو.. مع ذلك فقد كان فرحاً مرتبكاً، يؤرقه أنه قد يرى تلك الفقاعات في أي لحظة كانت.. كما يؤرقه انفجارها في تلك المرة التي لا تزال تترجّح في البرزخ الفاصل بين حدود الواقع والخيال.

وأرغم النور في ذاته على أن يفسح مكاناً للحقد والثورة.. فليذهب إلى الجحيم ذلك الظلام.. لم لايجته من موطن قدميه، ويدرزه مع

رياح الأرض؟ إنه ما دام هنا، فلا بد أن يتسرب من أي ثغرة كانت، وفي أي لحظة لايتوقعها.

وأحفظه وأثاره إصرار أمواج الظلام على التوالد والامتداد، بذلك العناد المقيت الدبق. وأججت غضبه تلك البقعة البغيضة، التي لا تنفك تنمو وتتعاظم، متربصة بالنور لحظة غفلة؛ لتلوه فتخنقه، وتطفو فوق أشلائه.

فجأة كذلك، وكما في كل مرة، وكما كان ينتظر، بدأت ترتفع كالقدر المحتوم، فقاعة عنيدة.. وتربص منكمشاً، متوقفاً انفجارها الوشيك.. لكن تربصه طال.. وكانت هي تنتفخ وتتمدد. وبرزت فقاعات أخرى اتخذت مساراتها تحت غلائل النور متصلصة، حتى رفدت الفقاعة الرئيسية. فتضخمت تلك واهتزت وربت، وتفجرت تحت سمعه وبصره، وتناثر الظلام والدخان والرماد.

طار صوابه.. خيل إليه أن مقدار القار الذي فار من الانفجار سيغطي تلك البقاع كلها، ويعكر الضياء المنداح في قفارها.. لكن معجزة وقعت.. كما لو أن ريحاً ملهمة، أو كفاً جبارة هوت من السماء، فمحقت كل ما قذفته تلك الفقاعة المجرمة من قذى وظلام ورماد.. لم يختف، ولم يتشتت، ولم تذر الرياح، بل انسحب من أقاصي امتداداته، وعاد فانسكب في فوهة الفقاعة الخاسئة، فأخمدتها.. أدار خنجرها إلى صدرها فمزقها، ودفنها في أمواج النور من جديد.. وعاد كل شيء كما كان.

لم يكن حتى التنفس ممكناً.. القرار هو الممكن الوحيد الآن.. فلينبش كل ذلك الظلام، وليُحرق.. فما كان للنور أن يقيم فوقه.

وها قد ثبت أنه لا بد من نفيه؛ ليباشر النور الأرض، وينفذ إلى أعماقها الخيرة، ويعاود الخروج في ثمرها وشجرها ومياهاها، صافياً نقياً لا يعكره الظلام.

وانتفض.. ولم تكن صرخة تلك التي أطلقها، بل زلزالاً شقق أديم النور المسكوب فوق تلك البقاع.. وهاله ما رأى.. كان الظلام والسواد قابعين في قعر عالمهما الدنيء، متشبثين باستماتة المنطقة التي تعشو فيها الأبصار من وهج النور.

كيف تتجاوز قمة الخير وقمة الشر؟! كيف يجتمع النور والظلام؟! إنهما لا يجتمعان قط.. قد يختبئ الظلام خداعاً وتمويهاً في زوايا ممالك النور.. لكنه لا يبقى هناك؛ لأن النور كلما توهج توغل في الأبعاد أكثر، وأضاء المزيد من الزوايا البعيدة، حتى يعم ويسود.

وراح الظلام المفضوح يحدق بعيون بليدة مطفأة مهزومة.. لقد فاجأه الانكشاف قبل أن يتخذ أفتنته كما يريد.. وأعلنت العيون ما كانت تخفيه، وأفصحت النظرات عما كانت تمويهه، ألقت به بنذالة وإفلاس وحقد أسود: الموت لكل خيط نور فوق الأرض.

كمية الحقد التي تكشفت، وحجم العداء الذي فتحت أبواب خزائنه على مصاريعها ملأه بالذهول والندم والخوف، وانقلب على ذاته يقرعها.. أي غفلة تلك؟! كيف تأتي أن تصل الأمور إلى هذا الحد؟! كيف لم يتحرك من قبل؟! كيف لم يخطر بباله الغوص إلى الأعماق للوقوف على حقيقة نيات الظلام، الذي يعرف أنه يجثم هنا؟! ذلك الخداع المجسد.. كيف استغل الظلام سكوته عنه، وطيبته ونقاءه؟

كيف استفاد من ضحالة خبرته بالممارسات الدنيئة، والأساليب الماكرة؟ أهو مخطئ؟ هل كان ينبغي أن يمتلك شيئاً من الخبث والخداع والحقد، ليتعرفها في عيون أعدائه؟!

وارتعد، وهو يتأمل متممًا: لو أنني كنت أقل قوة مني الآن! لو أن النور الذي أستظل بلوائه لم يصل بعد إلى أوجه! لو تبادلت الأدوار والظلام! لو أنه هو الأقوى!.. وصعقه الواقع الذي تكشف فجأة بكل ما فيه من مرارة الحقيقة.

الأمانة التي يحملها، أمانة صيانة النور، وفتح النوافذ أمام خيوطه لتغمر الأرض، تقتضيه الآن استخدام لغة الظلام؛ لأنها الوحيدة التي تفلح.. لا بديل من ذلك، إما أن يتحرك فيقتل الظلام، أو يقعد فيقتل النور.. وكان الأمر محسومًا بطبيعته.

طفق يرقب جحافل الظلام ترتحل.. واستوقفه أن ثم مستعمرات تتشبث بأمكنثها بوقاحة وصلف.. واستيقظ فيه التاريخ.. انبعث مجسمًا مجلجلاً، وملاً عليه أقطار إحساسه وإدراكه تساؤل مستنكر: أمكنتها! أي أمكنة تلك التي يصح أن ينسب إليها؟! وانبثق سؤال، لم يكن غريباً، ولكنه كان واضحاً ومحددًا: من أين جاءت؟!

تطاول الأزمان مؤه البدايات.. كل ما يذكره أنها مكروهة مؤذية، تنتقل بأذاها وسوادها أبداً، حتى إذا ما استقرت، تفرغت لممارسة الفساد، فانقلبت عليها الأرض التي تقلها، ففتنتها ولفظتها، ونفت ما تبقى من فلولها..

أحسّ بارتياح مجهول الماهية.. طبيعة الكون تأبى الظلام والسواد، تسلبه دائماً ما تيسر من أسلحته.. لكنها لا تقضي عليه تماماً، تتركه

ليشب ألق النور، ولتنتقي أبناءه، وتوقظ فيهم الشوق إلى الخير، كلما خفت إحساسهم به، وشغلتهم عن تكريسه وحمايته شؤونهم وشجونهم.

أرهقه الأمر.. ألهاه عن مهمته الأساسية.. النور الآن نقي وصاف، لا عفن ولا سواد ولا ظلام يتربص به في منبعه هنا.. أحس بالحاجة إلى شيء من راحة.. وساورته أطياف بعيدة، ورؤى لم يعد لها مكان، تنفست ذكريات ضياء الضحى الكسول في المرقب البعيد، والمرثيات الغائمة الهائمة خيولاً وأشعاراً وصبايا..

ولكن أين هي الراحة التي يحتاجها؟.. لم تعد هنا.. لقد بدلها راحة أخرى.. راحة ذات نكهة مختلفة، راحة عميقة، تكاد جذورها تغيب في غياهب الإدراك، كم تغيب في أعماق الروح والجسد.. إنها الراحة الحقيقية، التي ينعم بسلامها من يزرع تحت وطأة النصب الناجم عن العمل الجاد المثمر البناء..

بقدر الجهد والعرق اللذين يبذلهما، وهو يضرب في الأرض، فاتحاً بجسده المرهق السبل المغلقة أمام النور.. بقدر وصب الترحال، والحمل الذي ينقض الظهر يجني ثمار تلك الراحة المجهولة الماهية، المستعصية على التجلي، إلا من خلال الإحساس النقي الأصيل المتجذر في أغوار الروح والجسد.

كان ذلك الاكتشاف مثيراً، وراح يبحث في تلافيفه.. ما الذي تغير؟ آثار ذلك ابتسامته.. الكثير الكثير.. لا يستطيع أن يحصي أو يحدد ما تغير فيه، ولكن يمكن جمعه في عبارة واحدة: الانصهار في النور الجديد. يا للعجب!! كل ما يراه اليوم يمرّ عبر ذلك النور.. واشرباً

ناشراً ذراعيه إلى أقصى مداهما، كأنه يريد أن يكبر حتى يملأ الدنيا بما لديه من نور، أو يحتويها في ذلك الصدر المضيء الكبير.. إنه اليوم مخلوق مختلف، مخلوق عمده نور اخترق كيانه ومازجه، إنه العشق! إنه الحياة!

ومدّ عينيه يرقب بقايا الظلام الناصلة، وهي تتلاشى في الأفق، هزيلة تكاد تذوب في الرمال. وحاك في صدره قلق.. تذكر صوراً سابقة من أيام المرصد المنعزل.. صوراً كهذه.. حيث بقايا الظلام المنحدر تمخر متفرقة تائهة الصحارى والجبال والهضاب وتذوب ثم..

وطرد من خياله الفكرة.. إن الظلام اليوم من الضعف والهزال بمكان لا يسمح له بإعادة الكرة في أي مكان كان من الأرض، لقد دحره النور إلى الأبد.. حقاً إنه سيبقى.. فهي السنة التي يقوم عليها الكون، ولكن لن تكون له صولة ولا وطن، ولن يمتلك سلاحاً فاعلاً، يستطيع به تهديد النور، وسدّ المنفذ دونه.

بدت الأمور كما يجب أن تكون، وراح يحمل هواه وحبه ونصبه وعشقه فوق كاهله، وينطلق به تتخذه الجراح، ويمضه فقد الأحبة، ويملؤه الغدر والخيانة والأذى حزناً وهماً. لكن البلسم والترياق كانا حاضرين أبداً، ذلك الحبيب الذي يحمله في كل ذرة من كيانه، ويفرس منه فسائل مباركة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها..

أصبح ذلك اعتياداً، إذ تناول عليه الأمد، وكما لا بد أن يحدث دائماً، أسكره بهاء النور، واستيقظ فيه حينه القديم إلى التمتع الذي

يكاد يتوارى في تلافيف الأيام.. التنعم بذلك الجمال الباهر، الذي صنعه الله على يديه، هنا وهناك، وفي كل مكان.. وراحت ليالي وصباحات المرقب، الغارقة في لذاذات كاد ينساها، تومئ إليه من بعيد، واستيقظ في أعماقه شيء يشبه الحنين إلى ذلك العهد الملمع ببريق وجاذبية الذكريات البعيدة.. وكان الظلام هاجعاً في أغلاله لا يريم..

قاوم.. ثم لم يعد يقاوم، فمن حرم زينة الله التي أخرج لعباده؟! هذا ما استقر في نفسه بعد عشرات من المقولات التي تواترت على خاطره..

هكذا غمس أصابع قدمه في اللجة القديمة الجديدة بتردد.. هكذا استجاب لنداء الحنين الحنون المغربي.. ثم راح يفوص قليلاً قليلاً، وبقدر.. فما الضير في بعض ذلك في تلك الدنيا الجميلة التي صنع!

هكذا بدا يستيقظ فيه الإحساس بما اكتسب، فكنوزه التي منحته إياها فتنة الرمل الذهبي الساحر، ونقاء الأفق اللازوردي الفريد، وتلك الأرواح العاملة الشفافة التي عمرت ممالكه الصغيرة الأولى، أضيف إليها الآن الكثير الكثير.. لقد امتزج بها النور البهي، فأضاء كل ما فيها، نقاها وعراها، وكشف جوهرها، فدفع بالغث منها إلى الوراء، وجلا الثمين، وعمده بجلاله وجماله وعظمته، حتى بات ذا تقرد معجز لن يتكرر.. إنه يكاد لا يعرف اليوم صاحب المرقب القديم البعيد ذاك، حيث يقوده الحنين إلى الجذور التي لا تموت أبداً.

بهذه الدفقة من الأفكار اقترب من المرقب القديم.. كان لا بد من إزاحة ما يقف في الطريق إليه.. الأشجار التي نمت وأعطت وشاخت

وماتت وتراكت حطباً ففحماً.. الحجارة التي اقتلعها من السفوح والقمم كثر الليالي واختلاف الأعصر... الغبار الكثيف المتحجر.. وعناكب الزمان الهائلة المعششة في كل زاوية وكل ركن.. وغموض الماضي المهيم بتسلط وغطرسة وعناد.. لكن المفاتيح كلها كانت في يده. هل تستعصي العودة إلى الوراء بضع خطوات على من امتلك أزمة الخطوات، فربط أقطار الدنيا وأفكار البشر عبر المسافات والأبعاد والأزمان؟! هكذا بدأ خطوته الأولى إلى الخلف، بتحدٍ تارة، وبغريزة الارتباط بالماضي والحنين إليه أخرى.

وشغله العالم القديم الجديد، كان عالماً آخر، لم يكن عالم المرقب الذي استعاد ذكرياته فيه، ولا عالم النور الذي يحياه.. وتوقف قليلاً عند تلك الكلمة، ثم نحى شبح التردد: أجل إنه ما زال يحياه..

المرقب الأولى التي دخل فيها المرقب أثبتت له أنه، على الرغم من كونه ما زال هنا، فهو ليس هنا.. المرقب هو هو.. الآفاق كما تركها منذ مئات السنين العاملة الناصبة.. وومضت الكلمتان في فكره.. هنا يحس بوضوح بمبلغ ما كابد، منذ ترك هذا المكان حتى عودته إليه.

ودفعه الفضول والحنين إلى مقعده القديم، فهيأه لجلسة تعيد إليه الزمان الذي كان، وغاص بنشوة، حيث قضى القرون مسترخياً دون حراك، يراقب النجوم والتخوم.. ومدّ بصره يتقرأها بلهفة من يلقي صديقاً بعد طول فراق.. ها هي ذي كما تركها.. وسرعان ما استيقظت الذكريات.. وطفق يتلفظ مأخوذاً.. كل ما تركه هنا ما زال بإمكانه أن يراه.. كأنه ينتظره منذ أن ناداه النور.. كل شيء إلا هو. أحس أنه

اثنان.. وأحس، مندهشاً، أنهما يتصارعان، بل أحس أنهما، منذ زمن لم يستطع تحديده، قد بدأ يتصارعان..

لم يتردد لحظة واحدة في التسليم بأن الغلبة ستكون لكيانه الجديد، كان ظاهراً التفوق في كل شيء، إلا أن الأول كان راسخاً وصامداً، بحيث لا يمكن تصور محوه. كان أحياناً يراهما يتعانقان حتى تضيع معالم الصراع، ويخيل إليه أن ما يراه هو الحقيقة الثابتة الباقية، ثم فجأة يعودان إلى التمايز، فالتنافر، فالصراع...

راح يكابد إحساساً بالحيرة والاضطراب، وأشفق في مواقف كثيرة أن يجد الكيان الجديد سيئاً متفرداً، ينمحي إلى جواره الكيان العتيق، فقد كان يدرك ولا يزال، أن من خصائص النور الذي شغفه حباً محو الظلام، وأن في كيانه القديم الكثير من النقاط الخيرة التي جلاها النور، وبعث فيه الحياة المشعة والتوهج الفاعل.. وفاضت مشاعره، وضم ذراعيه إلى صدره في حرص مستميت على النور الذي صار جزءاً أصيلاً منه، بل صار هو نفسه..

أحس أن كيانه القديم سيحور غصناً في سرحة باسقة، تحتل جذورها التراب، وظلالها الأرض، وفروعها السماء. وأكسبه ذلك شيئاً من طمأنينة، وزفر زفرة ارتياح.. كان ينفر من فكرة الصراع، ولم يكن قد مارسه قط، كما تمارسه الأمم التي احتك بها، وهو يحمل إليها النور.

لم يعتد تضارب الأفكار وتزاحمها واعتراكها، فقد كان كل ما حوله ينساب في موجات لطيفة صافية قد تتعانق، ولكنها لا تصطرع ولا

تتشابك.. حتى عندما كانت دماء أبناء الصحراء تسيل، لم يكن ما يسيلها أكثر من صدمات مصالحة بسيطة، لم يتعب رأسه قط في تقصّيها، والإحاطة بأبعادها، لذلك انقاد إليه الكيانان في انسجام فريد. واعتق قول رسول السماء القادم بالنور: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.. وكان هذا ما تسعى إليه فطرته: أن يقوى ما فيه من الخير بما كان وما يكون، وأن يمحي إلى الأبد ما فيه من الظلام.

كل هذه الفلسفة تطلبتها رغبته الملحة في تلمس الجذور، والارتقاء في سحر ذكريات الماضي، وكلها كانت أسلحته ضد ما قد يتربص بتلك الرغبة من أخطار.. ومع ذلك كانت ثمة خيوط رمادية، تتراءى في الفضاء الصافي المذهب المنداح أمامه.. خيوط غير محددة الطبيعة والمصدر، لكنها موجودة، كتلك الظلال السود المتشظية من نسف مواقع الظلام، واجتثائه من الأرض.

اعترفته دهشة مؤرقة.. أقلقه أن تستدعي تلك الخيوط الرمادية المريبة الظلام إلى ذاكرته، وأربكه إدراك كنه الرابط بينهما.. ولم يجد إلا أن يقرر تنحيه جانباً كلما تراءى له، ولم يكن ذلك صعباً، فهناك الكثير مما يشغله، ويصلح للحلول محل ذلك خاطر الكابوسي المريب.

إطالة واحدة من عالمه الأول أسلمته إلى هذا الطوفان المرهق من الاضطراب بين ما كان وما يكون.. لذلك قرر أن يطيل أمد الراحة، متهيّباً بدء المراقبة الفضولية المتراخية كما كان يفعل من قبل..

فضولية متراخية!! وشكّ دون مقدمة في قدرته على التعامل والفضول والتراخي.. ووجد نفسه في حاجة إلى الكثير من استحضار

الذهن، وشحذ الذاكرة، لاستعادة طعم هاتين الكلمتين، فقد اعتاد أن يمارس الاهتمام بدلا من الفضول، وألف أن تستوفزه الأمور، وتقتحم به مضامير الفعل بدلا من التراخي.

لم يعد بالإمكان استعادة تلك اللذة الممعنة في الهرب إلى زوايا النسيان، ولم يعد بالإمكان قطعاً الاستمتاع بها. وذلك المرقب.. لقد حان الوقت لتغيير تلك التسمية.. فهو لم يعد الآن مرقباً، يمكن تسميته بالمنطلق أو المستطلع. فهو واثق بأنه وراء كل تأمله، من هنا ستبعث فكرة وسيولد همّ. واستسلم مبتسماً مقرأً.. ولوّحت له أطيايف السعادة الشاحبة بإغراء، ليتبعتها في أعماقه التي يتهيب خوض لجاتها..

كان الزمن لاهياً إلا عن تكريس ذاته، بالرغم من كل شيء.. وأحس أنه أصم أعمى فاقد الإدراك، كرة صلدة مصمتة، تتدحرج بإصرار.. تتحرك من داخلها، دون أن تعي ما وراء ذلك.. تطأ من تطأ، وينجح في التشبث بسطحها إلى حين من ينجح، ثم تلقي به إلى جانب من سبقوه وتسحقه حتماً، لا يستثنى من ذلك أحد.. قصارى ما يحدث أنه يترك على سطحها شيئاً من أثر، يصمد إلى أن يأتي عشوائياً ما يطمسه.. جثة مسحوقة كانت، أو أثر متشيث عنيد آخر.. ولم تكن الآثار تبقى قط، لكنها قد تعمر دورة أو دورتين أو دورات..

النور فقط هو ما لا تطوله تلك الكرة الثقيلة الغبية، فإذا ما سحقت الصدور التي تحمله فرّ منها واختار ألقاً قصياً، يتحدى منه بلادتها وسلبيتها ولامبالاتها. ثم انسكب في صدور أخرى تظل تحمله إلى أوان سحقها.. إنها أوعية النور التي ينمو، ويزدهر فيها، وتحفظه ليتناقله

مَن بعدها، فلا يقدر عليه الزمن كما يقدر عليها.. مقيت، أم مهيب
ومعجز وحكيم هو الزمن!!

رأسه يؤلمه.. يسعده.. يمنحه الإحساس بالحياة، برغم عناد حكم
الزمن وحتميته. لم يكن يعلم قبل ذلك أن اللذة الحقيقية ألم واحترق..
أن ولادة الشعور تعني انبثاق الحياة من اتحاد الألم والفرح.. وأرهقه
ذلك، كان جديداً عليه أن يصوغه، أن يدونه أو يغنيه، كما اعتاد أمام
كل إحساس يتخلله. شعر أن ما في صدره الآن ينبغي أن يترجم عملاً
لا غناء..

ورأى الدنيا كلها كتاباً منشوراً فوق ركبتيه، وهو على مقعده في ركنه
الشامخ ذاك.. فراح يعبّ صحائفه.. يملكها.. يحاكم ويطبّق ويُنفي ما
أثمرته أفذاذ العقول. وكان يهتز ويترف ويُرهب، بما مرّت به فرائد
القلوب والأرواح من تجارب تثري الحياة وتسمو بها.. وكابد فيه عناءً
هرب منه طويلاً، ثم اكتشف أن لا مهرب منه إلا إليه، واتحاداً غير
مباشر بروح النور الذي ماهاه ومازجه.

كان كثيراً ما يرفع عينيه عن صحائفه، ليفاجأ بأن عليه أن يتركها
جانباً، لينصرف إلى أمر ملح يستدعيه. وأرّقه السؤال، بل ألمه: لماذا
لا يستطيع أن يعيش كل شيء، وبالنسبة نفسها من العمق والفاعلية؟!
إنه يحس أن لديه القدرة على ذلك.. لو أنه فعل هذه وهذا وهذا، لنجح
وأبدع.. ولكن ثمة عوائق غائمة متشابكة متداخلة، غير محددة، وغير
مفهومة، وغير مقنعة.. لم هذا التنكيد؟ شيء مؤرق مؤذٍ ألا يستوعب
الأمر.

كان يتهرب من الاعتراف بأنه لا يمكن أن يمتلك القدرة على القيام بذلك كله.. إنه لا يقرّ شبه الإجابة ذاك، إذ يبدو له أن ثمة عاملاً آخر غير القدرة، إنه ذلك الثقل البليد غير المبالي «الزمن».

لماذا يتدخل الزمن ويفرض نفسه كعامل لازم، كلما همّ بفعل شيء؟ لماذا يحتاج إلى مساحة معينة منه، يخصصها لهذا العمل، وذلك وذلك؟!.. وتضجر.. إن قيامه بكل ما يريد مستحيل؛ لأنه لا يمتلك من الزمن ما يسمح له به، أو لأنه لا يمتلك من القوة ما يمكنه من تجاوز طوق الزمن وتحديّه.. هذا على ما بدا له يحتاج إلى قوة خارقة لم يزود بها.. إنّ عليه إذا أراد جمع الأمور كلها أن يبذل في محاولة الموازنة فيما بينها من الجهد ما لا يترك لأي منها ما يكفيه من قوته.

ولم يكن أمامه إلا أن يهرب من هذه الدوامة إلى صحائفه وأقلامه وتجاربه وتطبيقاته؛ بحثاً عن الترياق الذي كان يجده في انشغاله الطويل بحمل نور الحق الأول إلى أصقاع الأرض.. إنه الآن يمارس ذلك العمل في خدمة النور، يستولده بتعميد كل مظاهر الحياة والإبداع ببهائه وسره العظيم..

لم يكن هنالك بدّ من أن ينتزعه أمر بين الحين والحين من غمار حياته الجديدة، على الرغم من كونه قد مهد السبل للتفرغ لها.. لكن الحياة التي تتحرك باستمرار تولد المستجدات، ولا تكاد تعبأ بإصراره على الثبات في نقطة ما.

وأحسّ بأسف شديد إلى درجة الإيلام.. لو أتيح له التفرغ لما أراد لفعل وفعل وفعل.. وسرعان ما تدخل النقيض الحاضر أبداً: لو فعل وفعل وفعل لكان وكان وكان، من جراء انصرافه عن الأمور الأخرى..

حالة البلبلة المعذبة تلك صارت جزءاً ثابتاً في وجوده، وكان لا بد من تجاوزها بأي ثمن.. إنه لا يستطيع الانكباب كما يرضيه على أي عمل وفي أي اتجاه.. فالمؤثرات والمتغيرات تتجاذبه، وتؤرق هدوءه اللازم لأي إنجاز كان.. كيف يبدع، وهو إذا ما انصرف إلى الإبداع، وتوغل فيه إلى أقصاه هنا فلا بد أن أموراً أخرى، وربما ذات أهمية لن تكون على ما يرام هناك؟

أرهقه تراحم المتغيرات، وأحبطه أنه لا بد أحياناً من ترك ما هو أكثر أهمية من أجل ما هو أقل أهمية.. كان يفوص تارة في هذا البحر، وأخرى في بحر آخر، ويخرج في كل مرة موقر الشباك باللائى والكنوز المنسية في أعماق المياه الليلية، وينشرها تحت الشمس، فتغنى بها وتغنيها.

كانت الأمور تجري من حوله مكتفية منه بالكلمة أو الموقف أو الحركة المسددة المجدية، وكانت الأيام قد علمته شيئاً من مبادئ الموازنة بين شؤون الفكر وإبداعات الروح وإشراقات القلب. وطاب له أن يرى نفسه بكل ما يحمل من نور وعلم وفن، سيد تلك الأصقاع وقائدها.. كان يعرف أن ثمة تحت الشمس سادة آخرين، لهم ممالك شاسعة، مسّ الكثير منها نوره، بل توغل في أعماق بعضها بما يحمله من خير عنوة تارة ورضاً أخرى. ولأنه يحمل رسالة السماء الحقيقية، فقد كان ينعم بكونه الأفضل والأعلى.

لم يكن هنالك بدّ مع مرور السنين من بذل المزيد من الجهد للحفاظ على المكاسب التي أحرزها للنور، وأحرزها النور له، فهو لم

ينسَ قط ما تعلمه من قبل: طبيعة الكون تأبى الظلام والسواد، تسلبه دائماً ما تيسر من أسلحته، لكنها لا تقضي عليه نهائياً لتكرس توهج النور، ولتنقي أبنائه وتوقظ فيهم عشقه، كلما خفت إحساسهم به، وشغلتهم عن حمايته شؤونهم وشجونهم.

شيئاً فشيئاً، وكما يحدث دائماً وفي كل مكان، وتحت أي ظروف كانت، راحت تتأجج وتتكاثر الأسباب التي تنتزعه من مملكة الإبداع.. كأنما قد انقضى زمانها.. يا للزمن! ويا لتلك الغيوم التي لا تتي تنتشر في أفقه الضاحي الشفاف! وداهمته قشعريرة كتلك التي تجلبها أولى رياح الخريف، فأنكمش ساهماً، كأنه يشيع أليفاً يمضي ملوحاً ويدوب في الأفق البعيد.

لقد حلم كثيراً بهبوب تلك الرياح الصديقة التي اعتادها، تلذذ طويلاً بتخيلها تشتت الغيوم، وتعيد إلى الأفق رونقه وصفاءه.. ولكن الرياح الصديقة لم تعد تزور إلا غباً، حتى عندما تفعل، فهي لا تطيل المكث، ولا تكاد تغنيه عن كثير من الجهد والوقت اللذين ينبغي بذلهما لإعادة الأمور إلى نصابها.

كانت أيام الإبداع والغوص في أعماق الفعالية، ولذة استقراغ نبض العقل والقلب تتوغل شيئاً فشيئاً في عالم الذكريات فالأمانى، مما جعله فريسة لكآبة ليست بالجديدة، راحت تعشش في زواياه القصية.

وأرهبته الضيق والعذاب، فبقدر حرصه على عالم النور الذي يعشق، كان تمسكه بعالمه البديع الثمين، وقد استحال عليه الجمع بينهما كما يرضيه، فاستبد به التمزق المثبط، وجثم فوق صدره، مغتصباً لنفسه

مكاناً بينهما، ثم راح يتمدد، مزيحاً هذا تارة وذاك أخرى، حتى ران على قلبه، فلم يعد يجد طعام أي منهما صرفاً. وكان يعرف ذلك الطعم الجديد الحارق المجهض، لكنه الآن، وبعد أن شهد النور والإبداع يبدو سماً زعاقاً يسري في روحه وجسده وتحت سمعه وبصره..

وألقى نفسه يسبح مسلوب الإرادة في برزخ بلا ماهية ولا حدود، وبدا له أن كل شيء مما كان في متناوله يتسرب من بين أصابعه، وأن يديه عاجزتان عن القبض على أي شيء.. أو أن الأشياء هي التي تنفلت من قبضته وتستعصي على المكث بين يديه..

النور..! وتلمّسه جزعاً.. إنه ما يحتاج إليه لإصلاح كل شيء.. ولم يكن النور ضئيلاً ولا محتجباً، كان يحبه ويألفه، كان يقف على أبواب قلبه، منتظراً فرجة لاقتحامه، وكثيراً ما فعل، فكانت تعود إلى القلب إشراقته، وإلى العين صفاؤها، وإلى اليد قوتها.. لكن الرياح الغربية الهوج كانت تصفق تلك الأبواب، وتشرعها إلى الضباب والتمزق والعجز، فلا يرى وراءها إلا أطباق غيم كثيف يتصدى لنور الشمس التي يحلم بها..

كانت عيناه فيما مضى تبرقان بأشعة تخترق تلك الغيوم وتبدها، وتخلص إلى النور، فتفتح له الطريق؛ ليغمر القلب والأرض.. لكنهما الآن متخاذلتان خرقاوان، تكاد تخدعهما البروق الخلبية التي تدفعها هوج الرياح إلى سمائه، فلا تكادان تفرقان بينها وبين نور الحق الأزلي.. النور الذي ماهاه طويلاً، حتى صار قلبه منطلقاً لخيوطه إلى كل الأصقاع..

كان البريق الجديد فاتن الالتماع، لكنه كان قصير الخيوط، فلم ينفذ إلى أقاصيه قط.. لقد بهره، استلب عينيه، مدّ له حبات الإغراء بخبث ومكر، فتح كفه في غفلة منه، وسكب فيها قطرات من سائل عسلي لزج كالقطران، لكنه جارح الحلاوة، أغراه، فراح يلعبه.. واستبد به الهيام.. بسط كفه أمام وجهه وراح يدمن اللعق.. وكانت كفه المبسوطة تحجب كل شيء.

كان يسكر.. كان يهرب من أمه وعذابه وضعفه، تجلده ذكريات النور والمجد والسلطان، وقهره الرغبات المعرّبة، والخطوات المتمردة باتجاه البهرج والخداع والسائل العسلي الجارح للعين.. ولم يقوَ على التضحية بأي منهما.. وكان غروره لا ينفك يغيره بإعادة محاولة الجمع بينهما، كما صور له اندفاعه واحتداده من قبل أن في مكنته القيام بكل شيء لولا.. الزمن.

وكانت تصوراته تلك ترضيه أحياناً، فيدوس بحماقة ذلك الهاجس المتواتر.. ستفقدهما معاً.. ويتساءل مستكراً: ولم لا أحرزهما معاً؟.. بغض النظر عن كون الظلام والنور لا يجتمعان!!

وذات مرة هدته رغبته العمياء إلى ضالته.. إنها يجتمعان.. أليس هناك الغسق والغروب؟!

آه.. ها هو ذا أخيراً أمر جدير بالبحث.. ألا يمكن أن تدوم هاتان الفترتان؟ ألا يمكن أن يكون المخاض حالة مستمرة؟..

وخمدت الفرحة الخديجة.. لكنها ستكون عذاباً متصلاً.. ستكون شيئاً خارجاً عن قوانين الوجود التي تحكمه فيما تحكم، وقد قضت تلك القوانين أن المخاض مرحلة مؤقتة، ممهدة للميلاد.

كان في نقطة ما من أعماقه يشعر أن ما يفكر فيه سفسطة لا طائل وراءها، لكن عناده كان يتغلب على شعوره ذلك.. لم يعد ثمة شيء صافٍ في كيانه، لم يعد ثمة شيء قوي. وروعته هذه الحقيقة، لكن ارتياعه كان مثله أضعف من أن يبلغ مبلغ الزلزال اللازم لإنقاذه..

الحقيقة الوحيدة الساطعة كانت تسرب المزيد من الرياح إلى مملكته.. عواصف هناك راحت تجتاحه هنا، وكانت من القوة وكان من الضعف، بحيث راح يفقد الكثير من ركائز تفكيره لدى كل واحدة من ثوراتها العاتية. ولم يعد يقوى حتى على الاستنجاد بالنور، على الرغم من يقينه أن العودة إليه هي المنقذ الوحيد..

يقينه ذلك كان معلقاً في الفضاء، كان يحتاج إلى يد تمسك به، تعيده إلى أعماق القلب.. وكان القلب هواء.. زلزلته الرياح العاتية، فشتت النور، وها هي ذي تعصف بأوراقه وأقلامه وثمرات إبداعه الملهم المضيء، تذرو كيانه الروحي المجسد علماً وفتناً، فيتمزق على حراب الصخور وأشواك الجذوع وتتطاير أشلاؤه معفرة بالرمال حتى تثقلها وتدفعها، أو تحملها فيما تحمل من كنوز إلى البعيد البعيد؛ لتكون لغيره.

ألقى نفسه ضائعاً، سلاحه بيده ويده شلاء ورأسه أشل، والحراب تتقدم منه مشرعة من كل اتجاه.. عندما كان فيما مضى يحمل لواء النور، كان يسمى ذلك ظلاماً، أما اليوم، حيث لا لواء له، فهو العدو.. وإنه ليعرفه، ويعرف ما ينتظره منه، إنه ما ينتظره وريث النور من وريث الظلام.. ما أشد دهشته الغبية!.. لم كل هذا العداء؟! هل كان ذنباً أنه حمل النور والهدى إلى الدنيا؟!.. من ذا الذي يكره النور؟!!

وطحنته حسرة طواها دهشه من السؤال: لماذا يكرهون النور؟! لماذا لا يعتقدونه؟! هل كان سيدياً سيئاً إلى هذا الحد، حتى تنقلب عليه هذه الرياح الهوج العاتية بكل تلك الوحشية؟! حتى هذا السؤال يدرك أنه ليس في مكانه، إنه واع لما يجري، والوعي المحاصر بالضعف والشلل عذاب لا يحتمل، عذاب يهون معه وأده، وتغليق الأبواب من دونه، والهرب من سياطه إلى أي زاوية، مهما كانت قصية ومجحفة وضئينة.

يا للكواكب والنجوم عندما تتزاحم وتتدافع وتتفانى، وتخرف في غمضة عين إلى العدم، تاركة الظلام وحده.. ولا شيء غير الظلام..!

لم يفقه تماماً كيف تراكمت كل تلك الجراح فوق أديم جيده بكل آلامها، وما تورثه إياه من عجز وركون وخمول.. وكلما تفرس، في غفلة من عذاباته ومثبطاته، في جرح يتلمس ما قد يوقف سياطه وصراخه، انهالت عليه الجراحات تتشاكى، فضاع، وترنح تحت وطأة ألم لا يطيق عليه صبراً، وهرع مرعوباً إلى ردم ذلك الجرح بضماده القديم العفن..

استهواه البكاء.. وجد فيه الشيء الوحيد الذي يستطيع فعله في حالة العجز والشلل والاستهداف، ونزيف الجراح الجديدة الذي يملأ حفر الجراح القديمة الشوهاء النتنة.. أخيراً، كان لا بد أن تلي ذلك مرحلة التفكير فيما ينبغي عمله، في سلاح يدفع به أولاً غائلة الجراح التي لا تنفك تتزايد بلا مبرر، وبشكل لم يعهده أو يفهمه..

تخيل، في بحثه المحموم عما يمكن أن يعيد إليه شيئاً من مجده القديم أن اليد التي لم تعد تقوى على العمل، لن تعجزها العودة إلى

القلم، فهو أخف ثقلاً، وأسهل حملاً وأكثر طواعية.. وسرعان ما اكتشف أنه كان في أبعد نقطة من الحقيقة. لقد خذله القلم كما خذله الرجاء المجاني من قبل، بل إنه زاد على ذلك، فصنعه بحقيقة لم يكن قد تمثلها تماماً. فلئن كان القلم لا يحتاج إلى قوة الساعد، فهو يحتاج إلى قوة تتبع من ذلك الشيء العظيم الذي كان في داخله.. وفقده. وهكذا زاد القلم عدد الجراح، ولم يداوها، أو يسلب عنها.

ومن موقعه المقهور كان يرى.. يرى فقط، وبانعزال كامل.. بينما يتكاثر الضباب، وتتزاحم المرثيات، وتضج وتصخب وتتلوى، أخذاً بعضها برقاب بعض، حتى تضيع معالمها، ويدهمه الصداق، فلا يقوى على متابعتها. ويفمض عينيه الكليلتين، فلا يفتحهما عجزاً أو يأساً، حتى عندما تأخذ المرثيات والحقائق في نهش أطرافه، وتمزيق إهابه ونكء جراحه.. لقد كان فتحهما مأساة قائمة برأسها، تضاف إلى مآسيه..

صارت الخسارة خبزه اليومي.. فكأنما كان ثمة قاعدة لا تحيد عنها الأحداث التي تجري من حوله، اتجاء إلى النيل منه وتحطيمه.. كيف تتفق كل الظروف والأطراف لتكيل له اللكمات؟!

كان تارة يفسر ما يجري بكونه اللقمة الأسهل منالاً، لكن ذلك التفسير لم يبرر له كمية الحقد التي يواجهها بها كل ما حوله.. إنه لا يستطيع، من موقعه العاجز أن يرى بوضوح ما يحرك الأحداث من خيوط، قد تقوده إلى إدراك كنه ذلك الاستهداف الحقود، ومن يتولى كبره.

آه.. إنه يتلمس بأصابعه الكليية، كأعمى ليس له من وسيلة إلاها، ملامح يعرفها.. الظلام؟! الظلام من جديد.. أفكاره تأخذ طريقها إلى الترتيب، لا إلى الولادة، فهي لم تمت قط.. فليتحرك الظلام، فإنه المفتاح..

آخر عهده به، بل ببقاياها تتأكل في الفلوات الشمالية.. لقد اجتاز في حمله للنور تلك الفلوات، وما تلاها من جبال وتخوم، فلم تعكر أفق رؤيته تلك البقايا ولم يقف لها على أثر.. فهل ابتلعتها الرمال؟! على نحو ما كان موقناً أنه لا بد من وجود شيء منها هنا أو هناك، فهو يعرف طبيعة النمو والامتداد الفطوري في شظايا الظلام ومزقه. ولا يزال يذكر كيف يراها من مرقبه منذ قرون تتجاذب وتتلاصق وتتداعى، مسترة بمشاعل كاذبة، تخفف من وطأة حلكتها، ثم تسري ملتهمة المسافات بصمت، وتستوطن متطامنة منابت النخيل في أرض النور، من قبل أن يولد.. ولا شك في أنها ستعاود الكرة ذات يوم، وفي مكان آخر.

وتلفت، كمن يبحث فيما حوله عن شيء يكاد يوقن أنه، وإن لم تلتقطه عيناه، ليس ببعيد. وتذكر - في استسلام قانط - ما بذله النور، لاجتثاث ملاءات الظلام الصفيقة من صدر تلك الأرض، وتشتيتها، لإتاحة الفرصة للضياء، حتى يغمر الدنيا كلها.. لم يجد في الصدر متسعاً لحزن جديد، لذلك لم يتساءل ولم يتحسر، على أن النور لم يمحُ الظلام تماماً. وغامت في باصرته وبصيرته فكرة أزلية الصراع بينهما، لأنه لم يكن يملك أي ركيزة للتفكير فيها، وكان الصراع يعني له جراحاً فوق جراح..

وحدهم، من امتلكوا سفناً عبرت التاريخ الحقيقي، أدركوا عمق
المأساة التي يعيش، وحدهم أحسوا ذلك الوجد الفريد، الذي تسببه
رؤية الشموخ العزيز يداس، والنبيل الحقيقي يلوث ويدنس..

كان التاريخ، الذي كُرس بتسلط ووقاحة، كاذباً ومزوراً ولصاً، كان
كل ما فيه مزيفاً، حتى اسمه. أما التاريخ الحقيقي فقد ابتلعه الظلام،
وثبت أفعالاً محكمة على الأفواه القليلة التي يمكن أن تفتح عنه..

وفي ثورة نزع وغرور ألقى الظلام أقنعتة.. نعب منتفشاً، وبدا
واضحاً أنه قد أعد العدة بإحكام؛ ليوجه ضربته القاصمة إلى قلب
النور.. غرز سهمه الأسود الحاقد هناك، وحتط بقديمه الملطختين
بالفساد والضلال في مرماه.. في الأرض التي لم تزل تجد طعم دماء
الذين سقطت أجسادهم عندما طردوه منها مذؤوماً مدحوراً..

وألقي ببصره إلى هناك.. أحس أن قلبه هو الذي طعن.. وكان قد
نسي كيف يغزو الحزن القلب، فهو مقيم فيه، يتخذ أزياء من التبلد
والتقوقع والتحجر والتسمم البطيء المميت.. لا يصح أن يسمى تلك
الطعنة قاتلة، فهو مقتول منذ زمن لم يعد يذكر بداياته.

راح يصرخ ويجمع قبضتيه؛ ليكيل اللكمات للقرار البغيض المتمطي
بصلبه وأعجازه وكلكله فوق صدره، وسرعان ما دميت تانك القبضتان،
وأثختنا بالجراح، وتهدلتنا عاجزتين منهارتين، بين طعنات الظلام
القاتلة، وتخاذل سائر الجسد عن نصرتهما، ضعفاً أو جبناً أو خيانة.

كان اكتشافه الظلام، من جديد، جديراً بأن يستدعي انتفاضة
تغير الواقع المرير، لكن الشلل لم يسمح بأكثر من رعشة في أصول

الجدور، عميقة ومأساوية، فجرت الدماء من زمنات الجراح في دفقة هائلة، أرضت حقد الظلام، وأحكمت قبضته على الجسد الأشل، مما مهد السبيل إلى القلب الذي بات مباحاً..

مع ذلك لا يمكن القول: إنه قد مات، فقد كان على الرغم من استباحة وجراح قلبه حياً.. بمعنى ما، كان حياً، فهو أشل متهالك، لا يقوى على الانتصاب، لا يقوى على التحرك في ضجعته، لا تطاوعه يداه ولا عيناه.. لا يطاوعه إلا قلبه الأشوه الأبتى، الذي بدا غريب الإصرار على مواصلة النبض.

وكانت ثمة خلايا حية حرة، مكنونة لا تكاد ترى، لكنها كانت مصدر غمّ للمنتصر الجبان، فهي لم تخفَ عليه، ولم يعمَ عنها حرصه المتكالب، وإن لم يستطع الإمساك بأي منها. كانت كأضواء تلتهم من بعيد، كالنجوم ترى، لكنها لا تدرك. لأن النور يرى من أبعاد شاسعة يتعذر تقديرها.. يحدق إليك متحدياً، وتحقق إليه عاجزاً، ولا يبلغ بك الأمر أن تفكر في الاتجاه إليه...

هو أيضاً كان يرى ذلك النور.. لم تعمَ عيناه قط، حتى في أقصى أغوار الظلام ومجاهله، كان يراه.. ولكنه لم يعد يدرك معناه.. عيناه ليستا بعاجزتين، لكن قلبه وعقله عاجزان.. ومصاريعهما المغلقة على عفن طعنات الظلام لا مفاتيح لها، ولا قوة لديه لفتحها عنوة...

ما أمض الأثم عندما يهتصرك الداء، ويكون الدواء بين يديك، لكنك لسبب ما، لا تفتح فمك لتناوله! هذا السبب الخفي القاهر هو ما يعجزه.. وهو ما ينبغي القضاء عليه، لكنه يجب أن يتعرفه أولاً.

جسده الهائل المسجى على امتداد تلك الأصقاع بلا حراك، الراسف في قيود من كل لون ونوع، المشدود إلى الأرض بأثقال تعجزه وتضنيه، يقاوم باستمرار فكرة العجز عن التخلص منها، ذلك الجسد المهيب الفريد، يثير فيه أحاسيس شتى متضاربة: الإحباط، العزيمة، الانكسار، الثورة، اليأس، الأمل، الخجل، الاعتزاز.. ما أشد عند ذلك الجسد! بل ما أشد صراحة الواقع وفصاحته!

كل ما يعرفه عن نفسه، كل الحقائق المتوارية في أعماق الذاكرة، كل ما هوقابع بصمت وراء الإحباط والانكسار واليأس والخجل هو عزاءؤه. وانتابه خوف مفاجئ.. كيف ترك له زبانية الظلام هذه الحقائق؟! كيف سلمت من أيديهم، وبقيت فيه حية، وقد استماتوا في محوها وتزويرها وطمسها؟!!

أحسّ بصحوة وانتعاش، وراح يرمق في روحه يجلو باندفاع وشغف تلك الحقائق الثمينة واحدة إثر أخرى، ويدفع إلى الخارج بكل بقايا القوة التي ما زالت عالقة في جدران وجدانه الخاوي.. أصابعه المتموتة المطمورة في التراب، وجدت شيئاً من العافية ينسكب في مفاصلها المتصلبة، ارتعشت في حضرها، استجمعت كل حشاشة الروح المحتضرة، وتحركت.. تشقق التراب المرصوص منذ عقود كثيرة، وبرزت، كالشهاب الثاقب، الأصابع الرمادية المتصلبة، واستقبلت الشمس، وكأنها كانت في انتظارها، فألقت فيها روحاً تمشت في الأوصال، وتمركزت في القلب.

ثمة حياة.. النبض الذي كان مخنوقاً تحت ضغط قبضة حديدية يتنفس.. يحشرج.. ينتفض بقوة داخلية جبارة. يا للعجب! إنه نبض

حقيقي.. تدفق فجأة، ضجّ كما لم يكن يتوقع.. ما أعظم تلك القدرة التي يمتلكها هذا الجسد الأصيل الجميل على الحياة!

أذهلت المفاجأة أولئك الذين أنفقوا، وما زالوا ينفقون كل ما يملكون لإفناء ذلك الجسد، تراخت قبضاتهم الغاشمة، تجمدت مداهم الحاقدة، تثلثت فؤوسهم التي يحفرون بها الأرض بدأب حول ضحيتهم لتغرق في التراب.

وسطع نبض القلب.. سمعه الكثيرون ممن لم يكونوا يسمعون إلا نعيق الظلام في أبواقه. برعم، على الصفحات، وعبر الآذان، شعاع من الحقيقة المطمورة في رمال وسط العالم وقلبه. أدرك كثيرون من أقاصي الدنيا أن في هذه الرمال، التي تتوسط العالم، حقيقة منيرة، تقف جيوش الظلام برمتها في مواجهتها؛ لإطفائها وطمس معالمها.

وثار زعر الظلام، انفلتت كعاصفة وجدت فرجة في جبال شاهقة، فاندفعت بقوة الضغط والاحتباس.. اندفع أهوج أرعن مستميتاً، فدمر كل ما مرّ به.. استعاد الصوت من الآذان، وكلام الصحائف من العيون.. كان في مواجهة واقع يقتضي تجنيد قواه كلها.. فلكي تقضي على الحقائق، لا يكفي أن تطمسها وتشوهها، بل ينبغي أن تذبجها في مهدها.. الحقيقة لا تموت إلا حيث ولدت، وما دامت حية في أرضها، فإنها سرعان ما تستعيد قواها، وتجتاح كل الفضاءات التي طردتها منها.

هكذا تجمعت كل أسلحة الحاقدين، ولم يكن هناك ما يمنعمهم من التحلق حول ضحيتهم الهائلة، وإغماذ نصائحهم بوحشية في جسدها

العاجز، لاستئصال ذلك الداء من جذوره. انتزعوا كل ما عثروا عليه من حقائق، جمعوها في حاويات كتيمة كبيرة، ونقلوها إلى أبعد المنافي، مروراً فوقها قطاراتهم، حملوها بطائراتهم، وألقوا بها في متاهات الصحارى، وسلطوا عليها نيران أسلحتهم كلها، ثم حملوا بقاياها المتفحمة، وألقوا بها في أعماق نقطة من أكبر محيطات العالم.

ثم صنعوا بدائل أطلقوا عليها اسم «الحقائق» ملوؤوا بها الآذان والعيون، حقنوها في الأماكن الفارغة من ضحيتهم العتيدة، وخاطوا أفواه الجراح، وردموا مهاوي الحفر، وهم يغطون وجوه جرائمهم بكل ما تتفتق عنه قرائحهم من ألوان الأفتنة: معالجة المرض، استئصال الجهل، القضاء على الجوع، إعمار الأرض.

وكانت الأفتنة متقنة، وكان هو مشوش الفكر، حتى كاد يصدق ما يدعون.. بل إنه صدق ذلك فعلاً، فهو الآن، على الأقل، لا يستطيع الحراك، وإن كان يتحرك فقط، في مسارات مرسومة، لا يملك عنها محيداً. وهو يستطيع الرؤية، وإن كان لا يرى إلا من خلال المنظار الذي تكرموا به عليه، بوصفه صديقاً نامياً. والأهم من ذلك كله أنه يستمتع بتلك المباحج الصغيرة، التي تضيف على الحياة ألواناً براقية، وتدلل الرغبات، وتمنح النفس متعة، هي من أبجديات حقوق الإنسان. وقد كان محروماً منها طوال عصور ما قبل الذبح المظلمة.

وفي تطور محتوم صار يملك أن يحرك رأسه ويديه، تم ذلك على الرغم منهم، فهو ما يزال في مرحلة النقاهاة من عملية زرع الزيف والزور، ولا بد من السماح للجسد بالتقوي؛ ليتجذر زرعهم ويثبت، وهذا يستلزم التفاضل - ولو مؤقتاً - عن تلك الخلايا الهاربة من المباحض

البارعة، عن ظلال الحقائق التي تبتلعها مياه المحيطات ورمال الصحارى القصية.

لم يشعر هو بذلك، كما كانوا يشعرون.. فالحقيقة أنهم كانوا متفرغين لشؤونهم؛ لأن استقرار كياناتهم ونجاح مخططاتهم، مرهونان بمحو آثار تلك الحقائق مهما ضوّلت. أما هو، فقد استغرقته مباحج النفس الذي منّوا به عليه، بعد دهر من الاختناق، وطفقت وطفّت آثار عقاقيرهم وجراحاتهم، وحقائقهم التي ابتدعوها، على أي خلية أصيلة منسية، تتوارى في زاوية من الجسد المشوه الممسوخ، حتى عندما كانت تحاول أن تتنفس في غفلة من أعين جند الظلام، كان يتصدى لها؛ حذر مخاطرها على مكتسباته، التي يعرض عليها بالنواجذ، والتي أخرجته من حالة المجاهدة في سبيل الرمق، إلى الحياة ببريقها وحلاوتها، بالإضافة إلى ما تعد به من الحلم بالوصول إلى مصاف العلية، المختلفين في كل شيء.. الذين لا حق ولا جمال ولا خير إلا حقهم وجمالهم وخيرهم، ولا مجد إلا مجدهم، منذ أن كانت البشرية إلى يوم الدين..

هكذا امتلك هو الآخر مدية كمداهم، يستخدمها بالطريقة نفسها التي يستخدمونها بها، بل إنها لتسفر أحياناً عن نتائج أكثر نجاحاً.. لأنه أخبر منهم بمقاتلته!

* * *

إلى موضع ما، في تاريخ ما، تقاطر، من أكنة لا أسميها لدواعي السلامة والأمن، نفر من أولئك القلة الأحياء، الذين خلفتهم العصور

والأحداث.. إنهم بشر مختلفون.. لهم صدور هائلة الاتساع، وقلوب باهرة النقاء، وعقول معجزة الصفاء. يحملون شعاعاً واحداً، هو الإيمان والقصد، وتجمعهم لغة واحدة، هي العمل والتفاني، ويتداولون عملة واحدة، هي العرق، وتتظمهم صفة واحدة، هي المنعة من الزيف، ويسعون إلى هدف واحد، هو بعث الحقيقة..

كانوا أمهات وعلماء وفنانين.. وعلى الرغم من المبالغة في السرية والحذر، فقد نما إلى الظلام خبرهم. ولما لم يستطع بعد كشفهم بأعيانهم، ونظرًا إلى خطورتهم البالغة على جهود مئات السنين في التصدي لما يمثلون من قيم، ومن قبيل الاحتياط للأمر، والأخذ بالأسباب، وكإجراء وقائي لا بد منه، فقد قرر الظلام وأصدقائه وأتباعه وأعدائه ومناصره، بالإجماع، محاربة كل أم، وكل عالم، وكل فنان، يتوافر فيه أي من الصفات الآتية: النقاء، والإيمان، والقصد، والموهبة الحقيقية، ومزية المثابرة والدأب، واعتماد الجهد والجد والعرق منهجًا للعمل. كل بحسب موقعه ووضعه وقوة تأثيره في محيطه.

ولم يغفل الظلام وقبيله كذلك عن حقيقة معجزة، لا يملكون حيالها إلا الوقوف عاجزين، إنها قدرة هذه القلة المؤمنة العاملة على تخطيطهم، واجتياز كل كمائنهم المموهة، وحرابهم الصريحة المشهورة؛ لأنهم يعتصمون بالنور، الذي لا تفلح كل أسلحة الظلام مهما عظمت في التصدي لشعاع واحد منه مهما ضؤل.

ولذلك فهم اليوم بصدد اختراع نورهم العصري الحضاري الجديد، الأكثر بريقًا والأكثر جاذبية. وقد أطلقوا عليه أسماء مغرية من

قبيل الإنسانية والعالمية والانفتاح والشمولية والديمقراطية بين الأمم! كبدل من النور الذي يعتصم به هؤلاء المؤمنون الأنقياء المثابرون، الخطرون على الأمن العالمي..

فإلى كل من ينتمي، أو ينتسب، بشكل ما، إلى هذا الكيان المنكوب، أو يهمله أمر الحقيقة في هذا العالم: لئن لم نكن من هؤلاء الأفاذا، الذين يستهدفون بعث الحقيقة، فإن من واجبنا أن نحميهم، ونقاوم مخططات الظلام لمحاربتهم أو محوهم أو تهميشهم. ولننتبه إلى المُدى المجرمة المزروعة في هذا الكيان، فهي ألعام قاتلة، قد تكون أخطر من أسلحة الظلام التي ماتزال في يده...



ما وراء الخندق

الليل يجثم بليدًا باردًا، موصول العصف، مزجر الرعد، وسياط البرق النارية تجلد التلال المقرورة الراجفة بقسوة.. ومدينة رسول الله ﷺ قد أغلقت مداخلها، وتحصنت خلف خندق، يتيح لرماتها النيل بالنبل من جموع قريش وغطفان ومسانديهم، المتربصين بالمدينة منذ أسابيع.

كانت ليالي الحصار الطويلة تلك تذكر المسلمين ليالي الحصار في مكة، حينما ضرب الباطل أسواره الصفيقة الغاشمة على القلة المؤمنة المحاصرة في شعب أبي طالب، وتحيي على الألسنة وفي الذاكرة طعم رمال الشعب وجذوره، ومرارة ظلم ذوي القربى، فكأن الأمس قد بعث اليوم بملامح أفسى وقبضة أشد.

ها هم أولاء أعداء الأمس تحشدهم مكاييد يهود، تجرهم عبر الصحارى من كل حدب وصوب؛ ليضربوا على المدينة المؤمنة حصارهم الحاقد، ويمنعوا عنها أسباب الحياة، ملوحين بالموت تحت قبضة القوة الغاشمة، أو في براثن الجوع والبرد.

وفي معسكر الإيمان المتصدي عند ذيول سلع، راح حذيفة ينفخ في راحتيه المتلجتين، ويضمّ إليه أطراف إزاره الصفيق.. أحس أن هذا المرط يخذله، فهو لم يغن عنه شيئاً أمام الريح المتسربة من بين الجموع، ومن خلل السرادق، والتي تكاد تنفذ إلى عظامه.

تحسس الإزار مستعطفًا، مسترجعًا صورة زوجته، وهي تشيعه حتى الباب، ثم تنزع ذلك الإزار عن جسدها النحيل؛ لتلقي به على كتفيه: خذه يا حذيفة.. البرد شديد.

وأنت!

سأوي بالفتية إلى حصن ابن ثابت، مع عمه رسول الله ﷺ، أما أنتم ففي العراء.

ثمة خيام.

لا تمنع من رياح الليل.. خذه يا حذيفة.

وعاد يجمع إليه أذياله بحرص، ويخفي قدميه الراجفتين في ثنيتي ركبتيه، ثم دفن أنفه المثلج في راحته، ورفع بصره إلى سفح سلع، يستجديه الحماية من هذا العاصف الذي لم يع له مثيلاً طيلة حياته.

ضوء السراج النحيل يتراقص من بعيد، فتنجلي المرثيات تارة، وتغوص في الظلام أخرى، والنبى ﷺ ما انفك منذ صلاة العشاء منتصباً مستقبلاً مكة.. همس حذيفة لنفسه: ما زال يصلي! وكانت أشباح الرجال بين مصلٍّ وجاثٍ ومضطجعٍ وجالسٍ، تتواثب على جدران السرادق متلوية مع عبث الريح المتواصل، فقد كانوا يتراصون التماساً للدفع والانس، في تلك الليلة الليلية.

لم تطب نفس حذيفة بالعتب على الريح، فقد أحس أنه مدين لها.. وانتابه خشوع دفع بالدمع إلى عينيه، وراح يتمتم: أيتها الرياح.. يا رسول رب السماوات والأرض.. إنها لمعجزة ما تصنعيه هناك.. وطفقت مخيلته تستعرض الصور التي سمح بها غروب الأمس..

الخيام المتخافقة تنازع أوتادها نزاع خصمين يتفانيان، والأخرى المتطائرة تجرجر الأمتعة، وتكفأ الأوعية والقذور، وتعرقل الخطأ.. والناس تموج في الركائب والمتاع، فيطأ بعضهم بعضاً.. وشأيب الرمل تفرغها الرياح الهوج على المعسكر، فيخيل إلى الناظر أنها ستفرقه، وألسنة النيران المعدة للطبخ والإنارة والتدفئة تعربد بجنون، فتحمل الرجال على إخمادها بأيديهم؛ خشية أن تلتهم المعسكر بمن فيه..

لا بد أن يطبخوا.. أن يشربوا.. أن يتدفؤوا.. كل هذا توفره لنا بيوتنا التي نحتجزها وراءنا، أما هم فعراة عزل بين مخالف الرياح والبرد والليل.. يا جبار، يا قهار.. راح يرددها في ابتهاج ضارع، فيواري بذلك النداء القلبي الصافي دمعاً يجيش، ثم يفيض رهبة وخشوعاً..

كيف تتقلب الآية؟! لقد تألبوا علينا، وجمعوا لنا كل ما طالتهم أيديهم من قوة غاشمة، بتدبير يهود وكيدها وحقدتها، ونال منا الجوع والخوف، وأرهقنا الترقب الطويل، حتى كاد يحمل اليأس إلى قلوبنا.. وها هم أولاء في قبضة جبار السماوات والأرض، قشة في خضم سيل عرم، يدمر الخلاف عزائمهم، ويحبط سخط الله ما أعدوا من مكاييد وخطط..

بوارق السماء تحيل الليل نهاراً، في ومضات كالسياط المنهمرة، يتبعها هزيم رعد عنيف يصم الأذان، ويحبس الأنفاس، ويزيد الليل وحشة ورهبة.. والرياح تركل غضبي أمشاج الخيام والمتاع المبعثرة.. ولم يستطع حذيفة اقتناص غفوة، فراح يمزغ الإرهاق صامتاً متضرراً.. وكان النعاس مع البرد والتعب والجوع والخوف عذاباً لا يطاق..

ها هو ذا النبي ﷺ يخرج من صلاته الطويلة.. ينتصب كالرمح بين الرجال المقرورين الجائعين، المرهقين من طول الترقب والانتظار، ويجول بعينه في الناس.. فجأة أمحى كل شيء، لم يعد في الوجدان إلا الحرص على التقاط كلمات النبي ﷺ التي يهّم بقولها.. فقال النبي ﷺ: من رجل يقوم، فينظر لنا ما فعل القوم، ثم يرجع؟

.. يرجع! من يضمن أن يرجع؟!

كل الرجال كانوا يهمسون بتلك العبارة.. لكن الجوع والبرد والليل سمّهم، فلم يقو على النهوض منهم أحد.

شيء في داخله يتمرد على الجوع والبرد.. إنهما لا يعنياه.. كل ما يعنيه الآن أن ينهض مجيئاً النبي ﷺ قبل غيره.. وكانت الكلمة الفصل التي لا يعني معها الخوف والجوع والبرد شيئاً، الكلمة التي تقترن بالفعل، والأمر الذي يعني الاستجابة: «يا حذيفة.. اذهب، فادخل في القوم، فانظر ما يصنعون». قالها النبي ﷺ وسمعها حذيفة.

هكذا حذيفة حطم القيد الذي كبل الرجال كلهم، فأمر النبي ﷺ حكم مبرم فوري التنفيذ.. ودعا له النبي ﷺ أن يحميه الله ويحفظه، فكان ذلك عدته وعتاده.

أواقع هذا يا حذيفة! كيف نهضت خفيفاً طائراً، وقد كنت مشدوداً إلى الأرض كجبل، متخشب الساقين، متجمد الأطراف؟! ولم يعد في ساحة شعوره إلا كيفية قطع المسافة الفاصلة بين المعسكرين.. من أين سيلتف؟.. من أي نقطة في الخندق سيعبر؟.. كيف سيزحف؟.. أي الاتجاهات أكثر أمناً؟

وانتبه، فإذا هو منتصب، مرخ ذراعيه، مطلق العنان لفكره، يبتدع المخارج ويرسم الخطط ويبتكر الحلول. فكأنما هو رجل آخر، غير ذلك الذي كان قبل دقيقة واحدة متكوراً، يرتجف كأرنب مطارده.. إنه الآن رجل صنعه ندار رسول الله ﷺ لينفذ ما أمره به.

أحسّ الدماء الحارة تتدفق من قلبه، وتغمر جسده كله.. أحكم الإزار حول جسده، شدته يداه بقوة.. لتكن العقدة خلف الظهر، قد يضطر إلى الزحف على ركبتيه، وربما على بطنه.. وقوسه!.. وتلفتت.. استوقفته عينان تلتهمانه بنظرات مكبرة حملته على الابتسامة.. صرخ حذيفة في وجه الرجل مداعباً، كمن يوقظ نائماً: هاك.. ثبت القوس على ظهري.. اربطه بأطراف ذلك الإزار، وليكن على امتداد الظهر شاقولياً. وانحنى في حركة مفاجئة، حولت الموقف إلى دعاة، نقلت فرح قلبه المؤمن وانطلاقه إلى من حوله. وتابع ثرثرته المغتبطة: هذان الخفان.. قد يعيقاني.. وقذف بهما من قدميه الواحد تلو الآخر، ثم التقطهما، ودفع بهما إليه: إذا بعثوا إلينا غداً بطعام، فادفعه إلى ابنتي.

* * *

الرمل يخز قدميه كالأسواك الحادة، ويلسعهما كالسياط.. والريح القارسة تخدش أنفه وخديه وشفتيه، ولا شيء بينه وبين المصاييح الخافتة في الأفق إلا الظلام والفراغ.. واستعاد صورة المعسكر، ودرس الاتجاه الذي عليه أن يتخذه إلى السرادق الكبير، وهمس لنفسه مشجعاً: ليس بعيداً.

واستدرك: لكن الطريق مكشوفة، وينبغي الحذر. واستدرك ثانية:
لكن القوم في شغل بما هم فيه، وهذا يسهل مهمتي..

عندما بدأ سيره كان يعرف أنه لا يزال في موضع آمن، لكنه راح
يدرّب نفسه على الحذر والانتباه، وكيفية إخفاء ديب قدميه وحفيف
أنفاسه.. راحت الأصوات تخفت من ورائه، وهو يتوغل في الفراغ
والمجهول، تتقاذفه الريح، وتسوطه رشقات المطر الشعثاء، فتنال منه
كل منال..

رفع عينيه إلى السماء.. لا سماء!.. ظلام فوق ظلام.. أدنى
عمامته من أذنيه دون أن تغلقهما، ومد إصبعه أمام عينيه.. خيل إليه
أنه رآها، ولكن بعد أن أمسك بها بيده الأخرى، وانتابه شعور بأنه يسبح
في ماء مثلج.. صفرت الريح بعنف، وصكت جبهته ووجنتيه.. كان لها
صرير وجلبة.. لم لا يركض؟.. لن يسمع له ركز وسط صخب وضجيج
الطبيعة..

وركض متشوقاً، مرهفاً سمعه.. أين أصواتهم؟!.. المصاييح
الشحيحة المتفرقة لا تزال معلقة في الأفق، لكنها الآن تبدو أكثر ضياء..
إنها الشيء الوحيد الذي يثبت له أنه لا يزال يرى.. أما أصواتهم فلا
يسمعها!.. هل يحبسون أنفاسهم ليفاجئوه؟! قد يرتطم الآن بأحدهم..
قد يمسك بعنقه.. وانكش محاذراً، يعالج خوفاً بدأ يذر قرنه في غفلة
منه.. وفجأة توهج ذلك النور المكنون في أعماقه.. إنني مع الله، والله
معي.. وامحى كالسحر كل أثر للخوف، وذكر دعاء النبي ﷺ له، فأدفأه
النور وأشبعه، وملاه جرأة وغبطة..

وعلى الرغم من أنه لا يرى أي شيء، فقد أغمض عينيه.. وراح يصغي.. أصوات تصل إلى مسامعه.. أهم هم؟! أحد البصر بحركة غريزية.. بلى.. لقد اقترب كثيراً.. إنه المكان الأشد خطراً. هنا تتضاعف توقعات اكتشافهم إياه، عليه الآن الدخول بينهم.. إنها نقطة الأمان التي ينبغي له أن يجتازها قبل أن يستيقظ فيه الجوع والإرهاق، أو يقعده البرد. وأحس أنه قد تحول إلى عنين وأذنين فقط.

ها هم على بعد يسير.. إبل!.. إنه يشتم رائحتها. واقترب أكثر.. البهائم تمنحه الأمان والدفء. ومدّ بصره إلى أقرب مصدر ضوء.. لا أحد.. لا شيء..! إنه قريب جداً، ولا أحد يقربه. وأحس أنه إذا جثا فسيكون بمأمن أكثر، ففعل.. هبط بهدوء، غرز ركبتيه وساقيه العاريتين في الرمل الرطب البارد، ونصب جذعه، وراح يتشمم الهواء، ويتحسس أي صوت يلده الظلام.. وبرم بعصف الريح.. تمنى أن تهدأ لحظة واحدة؛ لتصله أصوات القوم.

فجأة، وكحجر ألقى في بحيرة، سمع رغاء بغير بعيد.. وتلفت: الإبل هناك عن يمينه، وحاول تقدير المسافة.. ليست بالطويلة، وذلك المصباح.. واكتشف فجأة: أنا في المعسكر، بينهم.. وهبط شيء ثقيل مؤلم في صدره، وتجمد في مكانه، مغمضاً عينيه، وراح في ابتهاج لم يكن من الممكن أن يتسع القلب لشيء سواه.

إن عليه الآن البدء بالمغامرة، سيمشي كما لو كان واحداً منهم. وهمس لنفسه: لنر ما فعله ابن مسعود.. وتجمد فجأة، وهو يسمع نداء: يا جابر.. يا جابر.

الآن.. لا مكان لأي شيء إلا العقل، فليستحضر ذهنه.. صاحب الصوت وجابر الذي يناديه هنا، بعيدان عن القوم.. وقدر الخطوات التي تفصله عنهما، وراح يرهف سمعه.. لا إجابة.. ولمعت في ذهنه بارقة، فرفع صوته: لقد ذهب.

عاد الصوت أكثر وضوحًا: ماذا؟!

ذهب..

اقترب المتكلم أكثر: إلى أين ذهب ذلك السكير؟

مرّ بي شبح قبل قليل، لعله هو..

فساعدني أنت.

وأضاف متأفّفًا: تعسًا لهذه الليلة!

فيم أساعدك؟

تمسك بالقعب واحلب.

ولمن؟

لمعاوية بن أبي سفيان.

حسبته يغطّ في النوم.

سلبه يهود النوم.

أترى حقًا أنهم ينفضون عنا؟

لقد انفضوا وقضي الأمر.. ولكن.. ماذا تدعى يا صاح؟
سليم.

لبنى عبد الدار؟ وماذا تفعل هنا؟

كان ذلك السؤال هو ما يتجنبه حذيفة، لكنه كان حاضر البديهة،
متيقظاً: وتعدني بكم خبري؟

تأكل شيئاً؟

... أخلو بطيف من أحب.

يا للطيف! أفي هذا المكان، وهذه الحال؟!

وهل للطيف مكان، وحال يا صاح؟.. هلمّ نجلب اللبن.

هيا، وأنشدني مما تشد طيفك، ولا يلهينك ذلك عن الإمساك
بالقعب، فتريق اللبن.

فجأة، تخلل عصف الريح ودوي الرعد نداء بعيد متقطع: هلموا إلى
أبي سفيان.. أصاخ الاثنان.. وتكرر النداء: هلموا إلى أبي سفيان..

هتف المولى القرشي متهكماً: أيضاً! أي مصيبة وراءه؟

واتجهت أنظار حذيفة إلى المصاييح التي بدأت تومض وتختفي،
محاكية الجلبة والضوضاء اللتين أثارهما النداء، فاستنتج أنه قريب
من السرادق.. وحدد المكان في ثوانٍ، وتوجه إلى القرشي، مبدئاً
الاضطراب: هيا، ولنسرع..

أجل؛ علنا نسمع خبرًا عما يجري.

أنا سابقك.. وداعًا يا صاح.

وانضلت ملتحقًا بأقرب شرذمة من الرجال الذين ولدهم الظلام في لحظات، وراحوا يهرولون إلى السرادق.

بدا واضحًا أنهم يتأهبون لاجتماع.. اندس حذيفة يدافع الرجال المستهدين بأضواء المصابيح والمشاعل الشحيحة المتباعدة.. كان السرادق ضخمًا، تثير بعض جوانبه مصابيح ترتجف تحت سياط الريح التي تقتحم كل منفذ مهما ضؤل.

جلس الرجال جميعًا متراصين؛ التماسًا للدفع، وراحت عيناه تبحنان، وأذناه تترصدان، وهو أقرب ما يكون إلى الجثة الهامدة. وفجأة علا صوت أبي سفيان جهوريًا، فاستقطب الأسماع والأنظار:

يا معشر قريش، لينظر كل امرئ جليسه، فإني قائل لكم قولاً لا أريده أن يبلغ محمدًا.

اتسعت عينا حذيفة، وانطبق شيء كالكلاب الحديدي على فوديه، وتوقفت أنفاسه.. ولم يدر أي قوة ألهمته ما فعل، فقد استدار بحركة غريزية مستنجدًا ببدايته، وما كانت لتخذه أبدًا عندما تمس الحاجة إليها.. ضرب بيده على يد الذي عن يمينه وبادره: من الرجل؟

معاوية بن أبي سفيان.

ثم استدار إلى شماله، مفتنًا المفاجأة التي دهمت جليسيه، فضرب على يد الذي عن شماله: ومن أنت؟

عمرو بن العاص.

قال حذيفة شأن المطمئن المتمكن: حسناً.

ثم صمت صمتاً مطبقاً، وثبت عينيه على أبي سفيان يلتقط ما يقول. كان في داخله يغلي كمرجل.. وأحس أن ركبتيه ستخذلانه لو نهض قائماً.. أنقذه إسراع أبي سفيان إلى الكلام، كأنه يختصر الوقت: يا معشر قريش، إنكم، والله، ما أصبحتم بدار قرار. لقد هلكت رواحلنا، وتخلت عنا بنو قريظة، ولقينا من شدة الريح ما ترون، فارتحلوا، فإني مرتحل.

ثم قام إلى جملة، فحل عقاله وامتطاه، فانطلق.

عمت الفوضى، وانطلق الناس يتخبطون في الظلام اللزج والريح التي لا تزال تعصف، كل يسعى إلى ركوبته ورحله. أما حذيفة فراح يتسلل مبتعداً، وهو يحمل كنزه في أعماقه.

هذه المرة لم يكن حذراً، كما كان قبل ساعة، بل راح يركض مع الراكضين النافرين في كل اتجاه، حتى تجاوز المعسكر.

من جديد انفرد حذيفة بالظلام والبرد والريح، وزخات المطر الإبرية.. كان قلبه يكاد يتصدع من فرط تصارع الإحساسات، فانزع عمامته، وجمع إزار زوجته على وسطه مهتاجاً، وانتصب بعنفوان، منتشراً، فاتحاً ذراعيه، رافعاً وجهه إلى السماء، يستقبل المطر والريح، وقد أحاله الخشوع إلى روح خالص، لا سلطان لقوى الطبيعة عليه.. كان قلباً أثيراً يتوهج في أعماق تلك اللجة التي جمعت السماء بالأرض.

رسول الله ﷺ ينتظر...

وحذيفة يطير بالبشرى...

والخندق الذي يعترضه أمحى...

لا حصار.. ولا أحزاب.. ولا خندق.. كأنه لم يكن قد حفره بيده
بالأمس القريب...

عبر المسافة في غفلة من الزمن، وأفاق وهو يصعد من الخندق..
لقد.. اجتزته!

وانطلق يهتف، مغموراً بحلاوة غبطة لم يذق مثلها في حياته...

الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر...



اللامنتمي

لم يعد يرى في الحياة الصاخبة، الغاصة بالمتغيرات من حوله إلا موني، لقد استعمرته تماماً.. وجهها الصغير المرصع بالنمش.. شعرها النحاسي البراق الملولب، مفاتن جسدها المبدولة بسخاء حاتمي، والتي يتحرق إلى حيازتها، واحتكارها لنفسه، في بيت فخم، تستطيع ملايين أبيه أن تضمنها له.

وضاقت عليه الأرض بما رحبت، فقد انحصر همه في امتلاك موني، في الوقت الذي أدرك أن الطريق إليها تختلف، والطرق التي يوشك أن يتقنها إلى النساء دونها عقبات، لا تقل صعوبة وعدداً عن البحار السبعة التي اجتازها الشاطر حسن إلى الست بدور.. فالطرقات إليها تمرّ من هناك.. من الرأس!! حيث المسالك الوعرة، والشعاب البكر، التي راح يستكشفها من أجل عيني موني.

ولأنه كان واثقاً في ذكائه، وقدراته المادية والمعنوية، فقد أصرّ على الماضي قدماً إليها.. فكر في أبعد وأعسر الاحتمالات.. كل شيء يهون في سبيل أن تكون له.. المال وحده لا يكفي، وموني لا تشتري بالمال.. وراح يترنم بذلك، متلذذاً متعجباً، فقد كانت تلك الصفة مما يمتدح في موروثه الفكري.. وإلا فما كان هناك من مشكلة.. فهو يملك من المال الكثير، وقد رماه هنا وهناك، من حولها، دون أن يجرؤ على رميه عليها، قبل أن يتأكد له أنه لا يعني الكثير بالنسبة إليها، وإن لم يتبادر إلى ذهنه قط أن ذلك بسبب العفاف.

إنها امرأة من طراز فريد، تتحدث باحترام وإجلال عن الرجال ذوي المبادئ، عن أولئك الذين يتمتعون بركائز فكرية متأصلة، تصدر عنها تصرفاتهم، ويتكئون برجولة ورزانة على خلفية ثقافية وحضارية تطبع سلوكهم.. إنهم ساحرون! وقد خيل إليهم ذات يوم أنه يمتلك مفاتيح ذلك السحر؛ كونه مسلماً وعربياً.. وأوشك أن يقدم إليها أوراقه بثقة، محملاً بكنوزه الرفيعة.. لكنه سرعان ما اكتشف أن مقولات موني العظيمة كلها إنما تبدأ بعد استبعاد كل ما له علاقة أو صلة بدينه وقومه!!

الدهشة التي صفعته يومذاك عفت عليها اللهفة المحمومة على البحث عن طريق أخرى.. لقد فرغت ساحة اهتماماته، إلا من البحث عن طريق إلى موني، وقد باتت الطريق اليوم أكثر وعورة، إذ عليه أولاً أن ينفي عن نفسه شبهة انتمائه القومي والعقدي غير المرغوب فيه. وهكذا راح يظهر لا مبالاته بكل ما يمت إلى دينه أو قومه بصلة، وباشر حملة بدأها من داخله، للانسلاخ عن جذوره المعششة هناك، في قلب العالم العتيق العريق، وفي تضاعيف الوجدان المتبلد، وفي أعماق الذاكرة المغتالة.

انخرط باستماتة في مجتمع مدينة الضباب.. دفع الكثير؛ ليتعلم أساليب القوم في المسلك والتفكير والمظهر.. بات يطيل النظر إلى نفسه في المرأة، يتخذ أوضاعاً مختلفة، يحاكي فيها توني أو ريتشارد أو جون. وكان يسرّه جداً أنه يمتلك بشرة بيضاء، يدين بها لجدته الإنجليزية، وقد طالما باهى بها إخوته وأخواته السمر. ولم يكن في ملاحظه ما ينغص عليه رضاه إلا ذلك الأنف الأقتى، والعيان الواسعتان اللتان تحملان لون ليل الصحراء الحالك الغامر.

وهكذا كان المبدأ حجر العثرة الحقيقي الوحيد دون موني.. راح يستعرض ما في الساحة حوله من مبادئ؛ ليعتق أكثرها نجومية وسطوعاً قريبي لعينيها. وبدت له الشيوعية المرشح الأوفر حظاً، وإن كان في داخله امتعاض ونفور مبهمان، يحاذر كل الحذر أن يشي لسانه بشيء منهما. لذلك حمد ربه كثيراً على أنه قد اكتشف، في الوقت المناسب أن موني، المتعصبة ليهوديتها، تكره هؤلاء، وتقول: إنهم عبيد لساكنهم.. ثم إن الشيوعية نفسها أراحتة، فأقل نجمها، قبل أن يحسم أمره.

ضاقت به الفكرة وهو يقبلها، ثم يستبعدها الواحدة تلو الأخرى، وغلبه إفلاسه ويأسه، وراح يطرح عليه احتمالات غريبة، حتى إنه تساءل: أأيكون يهودياً؟! ولكيلا نظلم الرجل فلا بد من القول: إنه استبعد الأمر تماماً.. فقد فطن، بغض النظر عن استحالة ذلك، إلى أنه يجب ألا يظهر أمام موني رجلاً بلا مبدأ.. فهي قد تكتشف أنه تهود من أجلها، وهو عكس ما يريده.

يا للمرأة الفذة التي لا مثل لها بين النساء في جميع أنحاء العالم!
إنها تستحق أن يفعل من أجلها أي شيء...

وهكذا راح يصارع أمواج حيرة خربت صفاء ذهنه، وقلبت هدوءه عواصف، وشت بها هواته وأخباره، فأقلقت الأهل في الوطن، وحملت الأب الشيخ المتهالك على شد الرحال محزماً بملايينه؛ لاستطلاع أحوال رجائه، التي لم تعد تروقه في الآونة الأخيرة.

واحتفى بملايين أبيه الوافدة، المرمية بأريحية تحت قدميه.. نحرها على مذبح التقرب الحذر الذكي من موني.. ولم يذهب ذلك

هباء، ففي أمسية باذخة في عاصمة الضباب، أبدى أحدهم ملاحظة مباركة، فتحت الأبواب المغلقة أمامه. كان ذلك عندما حرص، كنوع من الظرف الاجتماعي، على تقديم المقعد الأفضل لأبيه، بأسلوب احترامي ملكي إنجليزي. ولم تكد الجلسة تستقر بالشيخ المستسلم المشدوه، الذي يتحامل على استنكاره وألمه وانبهاره، حتى قال أحدهم بصوت بارد بطيء النبرات: الآباء مقدسون في الشرق.. وقالت موني، وهو يعب كل كلمة تقولها، ويؤطرها كقول مأثور، أو لوحة فريدة: إنهم شديدي الإحساس بانتمائهم، وهذا هو السبب في تعصبهم...

أدرك ما في عبارتها من انتقاد مبطن، وتأهب لنفي التهمة الشائنة عنه، كأن يقول: سامحك الله.. نحن لسنا متعصبين.. لكنها لم تكن العبارة التي ترضي وتعجب موني. وأسعفه أحدهم عندما انبرى، قائلاً: قد يكون التعامل مع الأبوين تعبيراً عن الحب أكثر من كونه تعصباً للانتماء...

وأعجبه الكلام، ورجب في توكيده، فاقترب من أبيه بحركة مسرحية، وانحنى خلف كرسيه، محيطاً كتفيه بذراعيه: والذي هذا أحب الناس إلي... وحرص على انتقاء الكلمات التي تلفت موني: علاقة فكرية وطيدة تربطني به... إنه فيلسوف بدائي مجهول... لا يمكن تصور ما في تفكيره من عمق... وراحت أذيال عباراته تتعثر بالبحث المحموم عن طريقة يوارى بها والده عن الأنظار، فلا يراه أحد من الصبح بعد اليوم.

هكذا بدأت قصة صاحبنا مع (اللانتماء)، وهو اليوم من أبرز دعائه، المؤثرين بألقابه المستحدثة كالتحرر والعالمية والانفتاح،

التي تدهن بها شفرة السكين قبل غرزها في القلوب؛ كي تخفف من ألم الطعنة القاتلة.. وكفى بذلك رحمة وإنسانية!

لكن الأمر لم يتوقف عند ذلك، فلا بد له، بين هؤلاء المتميزين فكرياً ومنطقياً وسلوكياً، من تبرير اتجاهه الجديد، ولم يجد صعوبة في أمثال هذا القول: لقد كنت لا منتمياً دون أن أدري، فأنا أمارس عفوية التحرر الخالص الشفاف.. إنه ضالتي التي بحثت عنها طويلاً، وشاءت المصادفة أن أهتدي إليها في ظرف غريب.. وها قد وجدت، فلا غرابة إذًا في أن أرمي بكل ما كان لدي، وبلا تردد من أقرب نافذة...

والحق أنه فوجئ بقناعتهم غير المتوقعة بما ساق من تبريرات، لقد بذل جهوداً مشهودة في البحث عن الكلمات والتعابير، ثم اكتشف أنه لم يكن ضرورياً ألّبتة، فقد تقبلوا كلامه للوهلة الأولى ببعض الدهشة التي أحس -بلا اكترات- أنها مصطنعة. وحاول بعضهم مناقشته دون حماسة تذكر، وحاول آخرون الاعتراض دون حماسة تذكر كذلك، حتى إنه أشفق من خيبة مسعاه، بل بدأ يستشعر شيئاً من مرارتها.. أما موني فقد لظمت الصمت.. وقد حيرته ذلك، وأربكه ترجح الاحتمالات فيما بين الاستنكار والرضا.. ما يهمله هي.. موقفها هي.. واستمر صمتها حيال دعايته أكثر من جلسة.. ثم بدأ الإعجاب.. هكذا.. وطار صوابه...

وأخيراً وقع ما ظل يسعى إليه طوال أعوام ثلاثة.. أعجبت به موني.. تحققت الخطوة الأولى في الطريق الطويلة، بل إنه هو أيضاً قد أعجب

بنفسه.. أعجب، على الأقل، ببراعته وقدرته على تحقيق ما يريد.. يا للإنسان إذا ما صمم على أمر!.. لكنه في الواقع إنسان متميز.. ألم تقل موني ذلك؟ وما دامت قد قالته، فهو حقيقة.. ولكنه ينبغي أن يكون صادقاً مع نفسه.. مبادئه لا تسمح له بالحكم العاطفي: ليس فقط لأن موني قالت، بل هو، فعلاً وبتجرد، يحس أنه إنسان متميز.

فجأة انتابه شيء من القلق.. إن عليه الإلمام بفلسفة ذلك المبدأ، ولا بد من قراءة شيء مما كتب في ذلك، لكن دراسته المتعثرة تقتضي مضاعفة الجهد؛ لتلافي التقصير.. إنه الآن في ورطة، وينبغي أن يعتمر تفكيره للخروج منها.. هل هذا لازم لتستمر موني في الإعجاب به؟! قد لا يكون الأمر بهذه الصعوبة.. هي نفسها، هل تعرف تلك المبادئ؟! وأوغل حذرًا في تساؤلاته، التي جرؤ عليها أول مرة: هم أنفسهم، هل يعرفونها؟!.. قد يجد نفسه غير مطالب بالفلسفة الفكرية.. وربما لا يطالبونه بشيء، فهم يبدون بشكل ما غير مباليين بالأمر بالدرجة التي تصور.. ولم تكن لديه الرغبة للتفكير في الأمر أكثر من ذلك.. كل ما عليه الآن أن يهتدي إلى فكرة أو نقطة محورية في المبدأ، يجلوها ويتحضرها دائماً في تفكيره وسلوكه.

وواتته الفكرة التي يطلب، وأنفق وقتاً ليس بالقصير في تصنيفتها وبلورتها: لا ارتباط بعقيدة، ولا أمة، ولا وطن، ولا قوم.. لا ارتباط بأي شيء كان.. كلمة ارتباط، المفهوم نفسه ينبغي محوه.. ألهاه فرحه باستخلاص روح ذلك المبدأ كما بدت له عن الإحاطة بمعنى ما توصل إليه، وألح عليه الجانب التطبيقي من الأمر، وهو الأهم والأجدر بالانصراف إليه.. إذا استطاع أن يحتفظ بهذه الفكرة حية في رأسه

فسوف تتطلق تصرفاته وفقاً لها، بغضوية مقنعة، وسيعزو أي خطأ يرتكبه إلى سلطان العادة، ويؤكد بموضوعية وإخلاص أنه دائب على التخلص منها.. مسألة وقت لا أكثر...

وقفز مستطيراً.. صعقه نجاحه.. كاد يصفق لنفسه، وهو يستعرض مزهواً الخطوات المعدودات إلى النهاية السعيدة.. الآن، في جيبه الداخلي، كما اعتاد أن يقول، جواز المرور إلى قلب موني.. يا للنجاح!.. يا للصفقة الرابحة!.. يبيع ماضياً لم يحصد منه إلا الخجل والخيبة، بمستقبل ينخرط فيه بأمة من أرقى أمم الأرض.. ووخزته الكلمة «أمة!» إنها لا تتماشى ومبدأه الجديد...

وفي أعماقه، الممعة في الابتعاد والتواري، همست ثمالة من أصالة غاصة مجهضة: هذا خاص بأمتك.. واستدرج بمزيج غريب من البلادة والغربة: «السابقة».. وصمت قليلاً في فراغ، ثم انتفض عائداً إلى زنزانتة!.. نثر رذاذاً منعشاً من زجاجة العطر الثمين، الجائمة فوق كراس ضخم على الطاولة.. عبيرها يشعره بأنه يطير.. وهو أحوج ما يكون إلى ذلك الشعور.. هتف وهو يضغط زر المصعد، منتشياً: إلى موني.. وأحسّ بخفة سريعة في قلبه.. الحب يصنع المعجزات...

عاد الوالد الشيخ إلى الوطن، معتل الميزانية والمزاج، يحمل في أعماقه امتعاضاً غير محدد الأسباب.. وأمضى مدة وجوده على متن الطائرة بصحبة مصحف صغير، يتلو آياته مبتهلاً إلى الله أن يحفظ ولده، ويكفيه شر تلك المتاهة التي يدعوها لندن، ويعيده إليه ناجحاً مظفراً يفخر به.

راحت اجتماعات الرفاق تحمل كل يوم إلى صاحبنا جرعات من التشجيع والرشاوى، وتقتحم به أبواب مواهب وقدرات يتمتع بها، دون أن يفتن إلى توظيفها في خدمة أهدافه وغاياته، وها هو ذا، وليس بينه وبين استسلام موني وإعلانها الحب والعشق إلا أن يجرد قلمه الذي كان كنزاً مدفوناً، ويثبت أنه كاتب ومفكر، تشر الصحف مقالاته، وتجري معه دور الإذاعة اللقاءات، وتتعاقد وإياه على كتابة التعليقات الفكرية والسياسية.. وفتحت موني والرفاق أمامه الطريق، صحيفة فصيفة.. ما أكثر ما تعرف هذه الفتاة!

ولمع اسمه، وتوطدت خطواته.. الطريق الذي لم يخطر بباله قط، الطريق الذي يتحدث الجميع عن وعورته وعقباته مهمد، بل مفروش بالورود كما يقال.. وهو -وينبغي ألا يغمط نفسه حقها- موهوب كان مغموراً، فقيض الله له...! وكبح تفكيره بعنف.. زجر تلك الذاكرة المتحجرة، التي لم يرض حتى الآن عن استجابتها إلى الوضع الجديد، وعدل العبارة، مؤكداً بصوت مسموع: «قيض» له من يأخذ بيده إلى الطريق الصحيح.

كان قلمه إنسانياً بكل ما تحمله هذه الكلمة من تألق وبريق، وما يحق لحامل جوازها أن يدخله من بلدان.. والحق أنه كان يملك نصيباً لا بأس به من القدرة على الإعراب عن أفكاره.. يا للأفكار! يا للكنز الذي هبط عليه من السماء! كم سهل له من أمور، وكم أنجز له من أعمال! موني أصبحت له... أكلت الغصة العبارة.. دفنتها في الأعماق التي ما تزال تخصه وحده. ازدردتها كما يجب أن يفعل.. فلا مناص من تجرع الامتعاض الذي يفرضه عليه الإخلاص لمبادئه..

الجهد المضني، الذي كان يتطلبه النجاح في الدراسة، هو الآن في مكانه الصحيح، فإن من الكسب للإنسانية أن يكتب. أما الشهادة الجامعية فقد ضمنها له المخلصون للإنسانية بأساليبهم الثورية، التي تحرر المواهب من البيروقراطية، ولا تعترف بالكبح في سبيل الهدف.. أليست الشهادة مؤهلاً للوصول إلى المركز المبتغى؟.. فإنه يستحقه، بما يحمل من أفكار، وقلمه الفريد، بشهادة الرفاق، ولا سيما موني، ولذا فالشهادة أدنى ما يمكن أن يقدمه إليه دعاة الإنسانية على طبق من ذهب؛ ليتفرغ هو لدعوته...

كل ما لذ وطاب اليوم ملك له.. عندما يعرف المرء كيف يضع نفسه في المكان المناسب يبدو الأمر كالسحر.. إنه سهل المنال، ولكن الاهتداء إليه صعب وعسير. لقد خدمه الحظ عندما اهتدى إليه، فتوغل بقدم ثابتة، على سجادات حمر، مهياًة خصيصاً لخطواته، وظل يتقدم بخط مستقيم، إلى ما لا نهاية، ثمناً للكلمة «النزيهة» التي تخدم الإنسانية المتحررة من كل القيود الوضعية، المعرقلة لتقدمها وتطورها.

اتسعت دوائر نشاطاته، وأدار النجاح الباهر رأسه، حتى إن صورة موني قد تراجعت إلى المرتبة الثانية في قائمة اهتماماته.. وأحس إحساساً خفياً أنها تتعمد ذلك، ولم يتلبث طويلاً عند الأمر، فقد تراخت أغلال الرغبة المكبوحة التي كانت تتحكم في كيانه، وأفسحت المكان لسطوة الحمس لمشروع ضخم وضع في طريقه...

قلمه، الفريد هنا، أكثر فزادة وتأثيراً في بلده، حيث تسود أفكار متعصبة مهترئة تقتضي الإنسانية تحرير المجتمع منها.. أم أن الإنسان

الغربي وحده يستحق أفكاره واستبدت به الحماسة للمشروع، دون أن يجرؤ على مناقشة قناعاته بما يفعل، بل إنه لم يرد ذلك، فهو شديد الحرص على مكاسبه الجديدة التي قد يهددها التفكير والتمحيص.

دارت به عجلة الاتجاه الجديد بشكل سحري، وكما في كل مرة، كان الجميع يدفعونه إلى هناك، إلى الماضي الذي هرب منه طويلاً، وأرعبته فكرة العودة إليه سنين عدة، لكنه الآن يعود مصلاً، يعود متحضراً متفوقاً، لا صلة له ألبتة بأبن تلك الأرض، الذي هجرها منذ سنين طويلة لتلقي العلم.. يعود لأنه يشفق على أولئك الناس، الذين لا تهب عليهم نسائم الفكر المتفتح. وإن مهمته الإنسانية عظيمة، فهو أقدر على الولوج إلى دخائل هؤلاء؛ لأنهم يعدونه منهم.. هكذا يفكر أبناء العالم الثالث، وكان يضيف دائماً بل الرابع أو الخامس.. وربما العاشر.. يقولها وهو يستحضر صور الجدران الطينية، والنوافذ الصغيرة التي تكاد تلتصق بالسقوف. ومجالس الرجال حول لهب الجمر، والقهوة بالهال، وراتب الحديث، والصبية المتدافعين حفاة، فوق الرمل الحار، تلوث الشوكولا الإنجليزية، والكولا الأمريكية، أثوابهم البيض الفضفاضة، وأيديهم السمر النحيفة.

وعاد إلى الوطن، توزع بين الأرض الأولى، والطائرة، وعاصمة الضباب، وكان دعاة الإنسانية والعولمة والانفتاح قد هيوؤوا له مركزاً مؤثراً في ميدان مخاطبة العقول في محيطه.. رئاسة تحرير الصحيفة الأوسع انتشاراً.. رئاسة مؤسسة تربية حساسة الاختصاص.. ووعداً، يعرف أنه منجز، مادام يبلي بلاءه نظرياً وعملياً في الدعوة إلى... ما يريدون.

أما موني.. فقد توارت تماماً.. ولم يعنه كثيراً يقينه أنها كانت تؤدي دوراً مرسوماً في حياته، وربما تستعد الآن لدور آخر، مع رجل آخر.. إنها الآن ليست أكثر من امرأة شقراء جداً، تقيم في بيته العامر، في بلدها البعيد، ولم يصحبها يوماً إلى هنا.. شيء ما في داخله يرفض أن تأتي.. لعله تلك الأصابع الحديدية الخفية، التي تجبره على المجاهرة بما يثبت أو يؤكد الانسجام بين نظرياته ومسلكه، وعلى الرغم من كونه قد مارس ذلك بامتياز في كل المجالات، إلا أنه لا يجرؤ على التفكير فيه، بالنسبة إلى طبيعة علاقته بزوجته.. ولا يتصور.. أن ينمي إلى الناس هنا، ولا سيما أهله والمقربون منه، أن من مبادئه ومبادئها عدم التزام أي منهما بالإخلاص للآخر...

عندما رأى أخاه بالأمس يحتضن وليده، ويقول: إنه قطعة مني، أحس بشيء يسقط في صدره، ويرتطم بقاع سحيق، محدثاً صدى أصمّ أذنيه، وأطبق على رأسه، حتى لم يعد يرى ما حوله.. إنه لا يستطيع أن يقول مثل ذلك عن سوزان الصغيرة، فعلى الرغم من محاولات أمها تأكيد الشبه بين ملامحه وملامحها، فإنه ثمة حاجز صفيق ساخر يقصدها عنه، حاجز لا يسمح بالقول: إنها قطعة مني، كما لا يسمح بالقول: وما أهمية ذلك! ...

عمله البطولي.. نضاله الشاق لإيصال الفكر المنفتح، إلى أعماق ذلك المجتمع المنغلق، يستأثر بكل طاقاته، يسد عليه أبواب الهواجس والهموم.. هكذا هم الأبطال، الذين يضطلعون بحمل المبادئ الكبيرة، تتوارى همومهم الشخصية خلف وهج مبادئهم، وتحترق رغائبهم في حمى الإخلاص والتفاني في خدمة تلك المبادئ...

هكذا كان يفلسف الأمور، ويبرر التطورات لنفسه، مدلاً إياها، غير ضانٍ عليها بما تجنح إليه من ملاذ ومباهج. غير أنها لم تكن راضية، وهكذا قرر عدم الالتفات إليها، فالعمل أكثر أهمية من التنقيب عن آثار العادة والتربية والنشأة الأولى.. وهذا جزء من نضال أصحاب المبادئ العقلانية...

ليست أعماقه السحيقة هي الوحيدة التي تضغط.. إنهم الناس من حوله.. إن عليه هنا مراجعة كل عبارة، ومناقشة كل فكرة يكتبها، أو يقولها في الإذاعة أو التلفاز، أو يجاهر بها بين جلسائه. فليس من مصلحة مبدئه إثارة الناس، بل عليه أن يتوغل فيهم برفق وحكمة. أما هناك في صحف الآخرين وإذاعاتهم، فإنه يطلق لسانه ولقلمه العنان.

المهام الصعبة التي توكل إليه الآن، تقتضي الترويج للإنسانية والعالمية، في شؤون الحياة المصيرية، إن عليه تهيئة الناس للاستسلام إلى أعدائهم الأذليين! عليه أن يقول لهم: هؤلاء الذين بأيديهم أزمة الأمور، فاستسلموا إليهم... وكان الأمر صعباً في البداية. فالضربات المتوالية العنيفة، التي يتلقاها العباد والبلاد، مباشرة وقاتلة، ولم تكن قط صريحة ووقحة كما هي اليوم.. إنها اليوم تختصر كل مقولات العقود السابقة، بصرخة فاجرة مفضوحة، لا مجال لتأويلها: إما الموت، وإما العبودية.

ونظر إلى قلمه، فلم يجد موضعاً، ورفع صوته فلم يلق له أذناً.. وتجراً على الالتفات والسؤال: كيف أجهر بما أومر هنا، وبين هؤلاء؟!!

وجاءته الصفحة سابقة الجواب العاصف، فالمعركة في ذروتها، ولا مجال للتردد، ولا مكان للمراعاة: صرح.. تصرف.

وانحنى بذلٌّ، إنه الثمن الحقيقي الذي لم يدفعه حتى الآن، على كثرة ما دفع.. كان يعرف أنه لا بد أن تأتي تلك اللحظة، وها قد أتت..

راح ينفث سمه في لدغات سريعة قاتلة هنا وهناك، ولا سيما من فوق المنابر البعيدة، وفي الصحف والمجلات ومحطات البث التي تطوي المسافات إلى تلك الأرضين، فقد كانت المواجهة تتطلب قدرًا من الوقاحة والصفافة أكبر مما استطاع حيازته حتى اليوم.

كان الناس يرزحون تحت وطأة الحديد والنار، مثبتين أنظارهم على العدو الصريح، يترقبون انقضاضاته المتوالية، ويتقونها بأجسادهم الحية، التي تنصهر وتسيل على حجارة محارق النضال والصمود. وكان هو هنا، ولم يكن الوحيد، كان يحمل حربته الوضيعة خلسة، ويتنقل بها بين الأرجل بحذر، يترقب هدفًا آمنًا؛ ليسدد إليه طعنته بنذالة وخسة، ثم يمسح وجهه الملطخ برشاش الدم المغدور؛ ليتيح لعينيه المرعوبتين رؤية هدف آخر...

عندما قال له أبوه، وهو على فراش الموت: أنت جبان وخائن.. لم يجبه بشيء، كان كل همه أن يقضي على ذلك الشيخ الفاني قبل أن يسمع كلماته أحد سواه.. ولم تعن له أخواته شيئًا، فهداياهم وهباته ومننه تسكتهن، ودعاياته الزائفة تقنعهن.. أما أمه ففجوز متهاكة، لا صلة لها بالعالم إلا من خلال الطعام والشراب.

وقضى أبوه بين الغضب والرجاء والألم. واقتصرت صلواته بالأهل على اللقاءات الخاطفة، التي كان يبررها بانشغاله الدائم.. أما سمومه فكانت تبث عن طريق أكبر مجلة في بلده، ولأه صانعوه رئاسة تحريرها،

بما يملكون من نفوذ، كما كانت تبث من خلال نشاطاته الاجتماعية والسياسية، إلى كل الجهات التي تطولها أيديهم.

* * *

تسلل جرس الهاتف إلى غرفته هذا الصباح، ملحاحاً عنيداً متحدياً. فتململ في سريره، وتمطى مستنشقا عبير العطر الثمين الذي ضمخ به رأسه مساء أمس.. صبّ أولاً جام غضبه على زوجته، لكنه سرعان ما تذكر أنه هنا، وأنها هناك في بيته الآخر في عاصمة الضباب.. وتحفز ليشتم الخادم البليد، ثم اكتشف أنه لا ينام الليلة في البيت.. وقرر تجاهل الأمر، والعودة إلى النوم...

تتابع الرنين واستمر. فنهض مغضباً، وغادر الغرفة إلى البهو.. رفع السماعه دون أن يقول شيئاً، فوصله صوت أنثوي: «...»؟

أطارت صلافة الخطاب، وانتفاء اللقب، وعدم التحية النوم من عينيه، وسأل بشيء من الحدة والاستنكار: من المتكلم؟

لا يهمّ الاسم، فلن تعرفني.

سأضع السماعه.

ستسمعني أولاً.

من يتكلم؟

اسمي فاطمة.. فاطمة لا تعرفها.. ستعرفها من كلامها.

هدأ من حدة لهجته: تفضلي...

أنا واحدة من ناس هذا البلد، أسترق الوقت من مشاغلي الجمعة لأقرأ، وأوفر من الضرورات الملحة؛ لأبتاع الكتب.. وقد قرأت لك ذات مرة فدهشت، ثم قرأت ثانية، فقررت ألا أقرأ لك بعدها، ولا أشتري صحيفتك أبداً.. ولكنها وقعت في يدي بعد حين، وغلبني الفضول أو الأمل فقرأت.. ورأيتك كما أعرفك.. كتبت إلى الزاوية الحرة! في مجلتك، مبدية رأيي فيما تكتب، لكن رسالتي لقيت مصير الكثيرات من أمثالها؛ لأن سياسة مجلتك تكريس فكرك، وقررت أن أعمل بفاعلية ضد البواء الذي تشهده بين الناس.. شكلت مع كثيرات وكثيرين ممن يشاطرونني الرأي فريق دعاية ضدك وضد مجلتك. ونجحنا في حمل الكثيرين على الإقلاع عن قراءتها.. وبالأمس سمعتك تقرأ تعليقا سياسياً من إذاعة «...» أحسست أنه قد آن الأوان لإسماعك رأي الناس الحقيقي فيك.. أنا واثقة من أنك ستسمعني، أليس هذا من مبادئك؟

استنجد بما تفرضه عليه مبادئه من روح رياضية، وتصنع ضحكة لا مبالية: هات يا سيدتي...

تجاهلت أسلوبه المسترضي المتملق: سأقول لك شيئاً واحداً.. إن أي ثمن في العالم لا يعدل المرء نفسه.. قف أمام المرأة، وانظر ملياً في عينيك، فأنا واثقة بأنك لم تفعل ذلك قط؛ لأنك من أولئك الذين يخشون اكتشاف الحقيقة.. فإذا فعلت، ووصلت إلى مرحلة التقرز، فربما استطعت إنقاذ نفسك...

وأغلقت الهاتف...

هيبت يدها كالشلاء بسماحته، والتفت ببطء إلى المرأة عن يمينه.. مرحلة التقرز! قد يصلها، ولكن... هل يستطيع إنقاذ نفسه؟

رحلة إلى ..

أيها القلب.. عم تبحث؟!

... أبحث عن ليلة لا يؤرق رقادي فيها حين، ولا يزلزل سكينتي
شوق أو احتراق...

أ إلى الآن!

وفيم العجب الآن، وما كفت عن ذلك يوماً؟

الآن توشك أن تثقل كاهلينا السنون...

تعرفين أنني لا أعترف بالسنين، حتى عندما تعترف بها القلوب.

أيها القلب.. ما كان لك أن تستوطن صدري، فأنت قد خلقت للريح
والفضاء.. ولا تتفك تطير وراء حلم ما يزال حلمًا، ولعله ليس لك...

مادمتُ صانعه فهو لي.

أتساءل أيها القلب.. هل تستحق هذا الحلم؟

الأشواق والأحلام وحدها لا يحكمها قانون الاستحقاق.. ولا توزع،
كالأجور، حسب العمل...

... ولذلك هي عشوائية وخرقاء...

ولكنها تذيب قسوة الحياة.. ثم إنها ليست عشوائية، بل هي محكمة بقانون الإرادة الصارم، الذي لا يعترف بالتعب والألم وقسوة الحياة.

يا لنبضك المتمرد المجنون! تشتري ألم الشوق بقسوة الحياة!
... ألم الشوق!! ألم الشوق هو الحياة.

وماذا بعد يا قلبي.. هل أستمر في مشاركتك البحث عما تريد؟
مادمت أنبض في صدرك، فلن تحتاج إلى إجابتي، ولن
تنتظرها...

وإلى متى؟!

إلى أن يتوقف هذا النبض...

وهل تحتمل، وأحتمل ما تريد؟.. إنك لتتوء بأشواقك، وهي مطويات
فيك، فكيف إذا دفعت آخر رمق فيك ثمناً لها؟!
عندئذ لن تكون الأشواق، ولن أكون.

لا أجرؤ على مطالبتك بالتخلي عن أشواقك، فلن أرضى إذا
استجبت لي أن تكون قلبي.

الآن، هذه أنت.. هذا نحن...

أندري!.. أتمنى أحياناً أن تدمرني عواطفك، أو أجد الوسيلة
لامتلاك أزمّتها؛ لأواقع الحياة كما يفعلون.

لن تعيشي الحياة كما يفعلون أبداً، فعواطفني قدرك الذي
اخترت...

العيش معك .. الموت معك .. العجز عن احتمالك، والعجز عن
التخلي عنك، كل ذلك مرّ وحارق، أنوء بعبئه ولا أريد التخلص منه...
أرأيت هذا قدرنا، وجدنا معاً وسنبقى معاً.

ومتى ينتهي الترحال أيها القلب، الذي لا مثيل له؟
لن ينتهي أبداً.. أنسيت أننا اتحدنا يوم تعاهدنا على أن تخضعيني
إلى نواميس الحق والخير، مقابل الاعتراف بأشواقى؟
فما لأشوقك أن ترهقني من أمري عسراً؟ مالها تحملني ما لا طاقة
لي به؟

لا تصدقي ذلك.. إنما يدفعك إليه إثارة العافية.. إن أشواقى قسمة
بيننا، ولا سكينه لك إلا بسكينتي ...
ولكن سكينتك عزيزة المنال.. وها قد انقضى العمر، إلا أقله، ولما
نلتقها...

وهل آلت في ذلك جهداً؟ إنك لتلوميني على أنني ما أنفك
أبحث...

اعذرنى أيها القلب، إذا ما قسوت عليك.. فلعلك تبحث، حيث لا
يجدي بحث.. ولعلك تبحث عما ليس له وجود...

كرّ الليالي وتقلب الأحداث علماني أين أبحث، وعمّ أبحث.

فأنت الآن تعرف عمّ تبحث وأين...

لا تتسرعي بالتفائل، وإن كان يعزّ علي قول ذلك.. فإنه لا يكفي من
ينشد الحلاوة أن يعرف أنها في ثمرة فوق نخلة.

أيها الصلب العنيد، الذي يرهقني جدلاً.. أي أمل هذا الذي وراء
إصرارك وعنادك إذا؟!

إنه الوعد الحق بالسكينة والقرار، وأنا مطمئن إليه...

ولكن الدرب طويل.. ولا بد للرحلة من زاد.. ترى هل يعزيك أن
تلقى من يملك مثل أشواقك؟

لم أعد أجروّ على الجزم بذلك.. فما أظنك نسيت أولئك الأخلاء
الذين التقينا على مدار الأيام.. أولئك الذين كانوا يصيخون إلينا..
يضحكون ويبكون معنا.. فتماهيمهم بكل شوقنا إلى القرار، ونحتضنهم بكل
عطشنا إلى الألفة، ثم فجأة تمتلئ سماواتهم بالدخان والرمود، وتغصّ
بحارهم بالظلمات والأنواء، وينبت الشوك والصبار كالحراب، في كل شبر
من حقولهم، فتنسلخ عنهم، مغادرين على جدران حيواتهم مزقاً، تظل
أماكنها أياماً وليالي وسنين تنزف فينا، جارفة بقايا الأمل والرجاء...

ها أنت ذا لست ناسياً ما خضت بي من غمار؛ لتصل إلى هذه
الأرض، أو تلك السماء، أو نجد لنا نقطة في الأثير نستوطنها.

وكيف أنسى.. وما كففنا عن ذلك قط؟ ثم ها نحن أولاء على شطآن
الشوق المترامية من جديد، ولا بد لنا من مرفأ أو سفينة...

لا مفر من الانصياع إلى أشواقك أيها القلب.. عهدي لك يلزمني
بذلك.. ولكنني لا أريد الارتحال في البحر.. الموانئ والسفن والامتداد

الغامض، بقدر ما تغريني، تحمل إلي الارتعاد.. لن أتحمل غدر البحر..
فمن يدري أي جراح تلك التي قد تسبقه!

هيا بنا.. لا تهمني الجراح، ولا غدر البحر، مادمننا معا.

أتخشى الرحيل من دوني؟

لن أرتحل من دونك أبداً...

* * *

أتشعر بالبرد يا قلبي؟

إن للانتظار لدفعاً.. إن له جناحين يحملان إلى الآتي، بما فيه من
دفع الأمل...

لكنه إذا طال بعث الفكر.. فها نحن أولاء على عتبات خريف العمر،
لا نعرف لنا محطة، بل نتكوم على رصيف في انتظار قطار، وحيدين إلا
من الليل والصمت والوحشة.. وقد طال بنا الانتظار...

ألا تعود بنا إلى البيت.. ننام.. نستمتع بالشمس والهواء.. نستجدي
القصد والإيمان سكيناً وسلاماً؟

القصد والإيمان.. ذلك الوعد الحق بالسكينة والقرار، ولكن لعل
رحلة الحياة لا تزال طويلة، فلا بد من زاد لما تبقى من أيام العمر...

أسألك للمرة الأخيرة: هل تحتمل المزيد من التشرد وراء الأشواق؟
المزيد من تشمم الريح، وتحسس نبض الأرض، والتطلع إلى النجوم؛
التماساً للطريق إلى ماء الحياة؟

لا بأس ما دمنا معاً...

يا قلبي، الذي أعذبه ويعذبني.. لكم من التجارب سيتسع العمر،
وقد بدأت السنوات ترهق الكاهل، وأعجب كيف لم ترهقك؟!

لقد أرهقتني، ولكنك لا تشعرين.

كيف؟ وأنت لا تزال تحملني على الترحال والمغامرة بهذه الحماسة
التي أغبطك عليها؟!

ألم أقل لك: إنه قدرنا؟

إنه حقاً لقدرنا.. فهيا بنا.. إن في الأفق شبح قطار...

اليوم قد تطول الرحلة أكثر.. ومن يدري، فقد لا نصل أبداً.. فأنا
قد عزمت ألا أترجل بك في محطة كتلك التي تقف فيها القطارات،
وتنتهي عندها الرحلات.. اليوم أبحث عن محطة خاصة بنا.. محطة
لا يقرّ بوجودها أحد، لكنني أريدها، وسأسعى بك إليها، أيتها المعذبة
بي، كما أنا معذب بك...

كأنني اكتشفت، الآن فقط، أنك عندما تسعى إلى أمر لا تفكر قط
في الطريق، ولا تكاد ترى سوى ما تسعى إليه...

لا يحملنك عزمي على الظن أنك ستجدين في محطتي ما يرضيك
ويرضيني، فقد تستقبلنا بعاصفة من الرمل، أو بثلة من رجال الشرطة،
ينقلون أعينهم بين أوراقنا ووجهينا، ثم يشيرون إلينا بالعودة إلى
أماكننا؛ لأننا لن نجد لنا مكاناً في بلدتهم.

لا بأس عليك يا قلبي.. إن من يعتزم خوض المجهول بحثاً عن مثل غايتنا فلن تضيره عقبات الطريق.. ولن تستمر الرحلة إلى الأبد، فلا بد أن نترجل في محطة، ولن تكون أبخل من تلك التي انطلقنا منها.

من يدري..؟ فقد تكون كذلك.

فلتكن.. إن باب الرحيل لا يغلق أبداً...

فهاثي يدك.. إن الطريق، على ذلك، طويلة، والترحال مضنٍ...

أي راحلين نحن! فلا حقايب لدينا، ولا نملك ثمن بطاقة الركوب.. ولا نعرف إلى أين يسير بنا ذلك القطار الذي لا يكف عن المسير.. ولكن في الخيال محطة...

آه.. ها أنت من جديد كم أعرفك.. تخففت فجأة من كل ما كان يثقلك، وانطلقت معي.. في رحلة حمقاء بلا مال ولا متاع.

لا حاجة بنا إلى المال والمتاع.. أنا لدي قلبي، وأنت لديك الحلم.. ستقدم إليّ النبض، وسيتولى قلبي ما تبقى من العمل، وسنعرض بضاعتنا في أول محطة نزل فيها...

حديثك يحمل على الشجن.. يعدني بحلم دافئ لا يطال.. ترى هل أجد يوماً ذلك الرفيق، الذي يقف معي في اللحظات البائسة، ويركب معي القطارات إلى المجهول كما تفعلين؟

يا لولعك بالشجن أيها القلب.. ها قد منحتك ذلك الرفيق، قلبي.. وما كان إلا كذلك...

إنه ليس رفيقي.. إنه أنا...

دوامتك المضحكة المبكية تلك.. أخرجني منها، وعدّ بنا إلى ما كنا فيه.. أريد منك وعدًا صريحًا وقاطعًا بالمساعدة؛ لنحصل على ثمن بطاقة الركوب.

أي وعد هذا الذي تطليبن! إنه وعد قائم، ولا سلطان لي عليه.. عندما أحس بدفء الحياة أو بردها، بشوكها أو حريرها، فأنا لا أتخلى عن الحلم، ولن أضن به عليك...

وإذا انتهت الرحلة، أو نادتنا رحلة الأبد، أو شاخ القطار، أو استبدلت مركبات الفضاء بقطارات العالم، قبل أن نجد من يشتري بضاعتنا؟

لا بأس.. مع ذلك لن يعيدنا أحد إلى حيث كنا؛ لأنهم لن يجدوا لدينا الأجر اللازم.. وهكذا نكون أقرب إلى محطتنا التي لا نعرفها منا الآن...

...ومن يدري؟ فقد تسلمنا رحلتنا، بعد كل ذلك، إلى مرمى الأشواق.. إلى حيث قد تجد لك مقعدًا تقرّ فيه، أو سريرًا يمنح جرمك المتعب المقرور الراحة والدفء، أو جدارًا تلتصق به متأملًا بأمان، من فوق كتفيك ورأسك، صدره الرحب الذي تستوطنه، أو منضدة تحتضن أوراك وأقلامك ومرافيك...؟

أترين ذلك واقعًا؟

... لا أريد الغوص إلى ما وراء هذا الصمت، فتكلمي.

أخشى ألا تفهمي...

أفهمك؟ ... أنا أعرف ما ستقولين...

حسناً أيها القلب، إذا كان الترحال قدرنا، فلنجعله جميلاً أو مقبولاً...

هكذا يتجمل الإخفاق.. ما أبلده، وهو يصير على ممارسة تلك اللعبة المفضوحة!

لا تسترسل.. اسمع.. ثمة طريق مضمون النهاية.

أعرف تلك الطرقات.. أعرفها كلها.

إنه من ابتكاري...

كذلك أعرف ما ستبتكرين، ولن يعدو بعضاً من التنازلات بصيغة جديدة...

ليس هذه المرة.

فاسمعي إذًا: لن يضيرنا أن يكون مبتغانا مزيجاً من الواقع والخيال، لن نطالبه بتشدد أن يكون كما نتوقع؛ لئلا نكتشف فجأة أن ما نسعى إليه مجرد خيال. أليس هذا ما ستبتكرينه؟

... أيها المتعب الذي يجمع النقيضين: التمرد والصبر.. أيها المحكوم بالمسافة الهائلة بين ما يمكن أن يملك وما يكفيه.. متى ستتعلم أشواقك القناعة!

عندما يبرد كل شيء، ويسكت كل شيء، ويظلم كل شيء. وأنام في صدرك، فوق ذلك الكوم الهائل من الأشواق والآمال والرغبات، عندها سأكون غاية في القناعة، فلا أنزع إلى غاية، ولا أتطلع إلى أفق؛ لأنني في تلك اللحظة، لن أكون بحاجة إلى أي شيء.



حكمة من صبي

مدّ يده إلي بورقة جمع إليها قلمًا، وقال، وهو يخرج رأسه المشعث من جيب قميصه: اكتب لي بعض الأخبار الجديدة.. المثيرة.

- أي أخبار؟

رمانى بنظرة لوم مداعبة: .. أخبار الدنيا.. أستاذ التربية العسكرية يسألنا أحياناً عن آخر الأخبار.

تناولت الورقة والقلم، وأنا أشير إلى ساعة الجدار مؤنبة: السابعة والرابع، الآن تذكرت الأخبار؟

أجاب، على عجل، وهو يحشر قدمه في حذائه الغليظ: رؤوس أقلام.. ما قلته البارحة عن المرأة وأطفالها الست في الجنوب.. قصف منشآت النفط في شمالي العراق...

ونفض يضرب بقدمه الأرض، لتستقر في الحذاء، وهو يضيف بسخرية مرّة: ما شاء الله.. الشمال والجنوب!

انتزعت عبارته الأخيرة فتيل غضبي، فقد سررتني تلك اللفتة الذكية، بقدر ما ألمتني ترجمتها العفوية لإحساسنا بالإفلاس والمرارة أمام واقع غاشم، يستهدفنا بقوة فاجرة، ويحرق، فيما يحرق، توفد هذه القلوب النقية والعقول الذكية، التي كتب عليها أن تسحقها رحي ظالمة، تديرها أيدي أعداء لا يرقبون فينا إلا ولا ذمة...

ازدردت غصّتي وشرعت أكتب على عجل، مؤجلة اللوم.. ثم دفعت بالورقة إلى ولدي ذي الاثني عشر عاماً، وهو بالباب يستعجلني؛ كيلا يتأخر عن وقت المدرسة. وقلت بعتاب رقيق: من الآن فصاعداً عليك الاطلاع على الأخبار بنفسك.. أصبحت شاباً...

قال وهو يطوي الدرج قافزاً، دون أن يلتفت إلي: أصاب بالاكْتئاب كلما استمعت إلى نشرة أخبار.

قلت: سنتكلم في ذلك فيما بعد...

عندما أنهى واجباته المدرسية، هذا المساء، لم أجد صعوبة في العثور على محطة بث تستعد لتقديم نشرة أخبار.. ناديته: تعال.. حدثني عما جرى في درس التربية العسكرية اليوم، ريثما تبدأ نشرة الأخبار، فنستمع إليها معاً. قال بلا حماسة: ... الجميع تحدثوا عن الموضوعين.. بعضهم ذكر أيضاً رد المجاهدين السريع.. لم تكتبي لي عن ذلك...

قلت معذرة: لم أكن قد علمت بالأمر بعد.. ثم إن عليك الاستماع والكتابة بنفسك، كما قلت لك...

بدأت نشرة الأخبار.. جعلت أستمع إليها، حبيسة دائرة الألم اليومي الذي أصبح خبزاً وماء لا غنى عنه ولا غناء فيه.. وفجأة تذكرت الصغير القابع إلى جوارى.. استرعاني صمته وهدوؤه، فجعلت أراقبه خلسة.. كانت عيناه مسمرتين على شاشة العرض، وأصابعه تضغط بتوتر على جانبي جهاز التحكم الذي يمسك به.

لم أكن أسمح لأولادي بالكلام، وهم يتفرون.. مهما كانت المادة التي تبت.. وعندما بدأت الأخبار العالمية، مددت إصبعي إلى الجهاز الذي يمسه به ولدي؛ لأكتم الصوت.. والتقت عيناي بعينه، كانتا كاييتين، يزحف التعب على أجفانهما.. تمطى، وقال مبتسماً: شيء بشع.. لماذا يقصفوننا هكذا؟

مرة أخرى وكما حدث في الصباح، منحني صغيري تلك النعمى المسروقة من إجحاف الواقع وقسوته.. ضمير الجماعة في «يقصفوننا» كان كالسحر.. نظرت إلى ولدي، ونظرت إلى التلفاز.. ما أضالهم أمام تلك الكلمة التي ينطق بها طفل!.. كيف يحاولون تكريس المستحيل..! كيف تنفصل عرى ما تزال موصولة منذ آلاف السنين، يحس بها أطفالنا كما يحسون طعم الحلوى، ويتذوقونها كما يتذوقون نكهة اللب.

انتبهت إلى أنه ينتظر إجابة سؤاله، وكمن يستهلك الوقت بانتظار الإجابة راح يتساءل: لم لا نرد عليهم؟!.. ألا نملك أسلحة؟!.. ماذا سيفعلون لو ردونا، هل يدمروننا؟!.. أحسن من هذا الذل...

سيل من أسئلة وتعليقات قد أعرف إجاباتها، ولكنني لا أعرف كيف أوصل تلك الإجابات إلى فتى في الثانية عشرة، فتحت له النافذة على مشهد مشوش مشوه لا أملك له تفسيراً، ولا أعرف عليه تعليقا.

أضاف كأنه قد يئس من الجواب.. أو لعله أدرك بلبتي، فطالما تبادلنا، نحن الكبار تلك الأحاديث على مسمع منه: أمي.. كيف نسمح أن نقصف هكذا، ولا يرد أحد..؟!.

ما أوجع براءة هذه الكلمات! وما أصدقها! كيف نسمح؟ لا أحد يرد.. أه يا صغيري.. إلى كم من الوقت والجهد نحتاج لإجابة سؤالك؟!.

عاد ينتظر إجابتي مبدئياً تجملاً أو إشفاقاً أو تعاطفاً، وكانت مرارة التخبط في أمثال ذلك الموقف أمام أخته الكبرى، قد بعثت على لساني متحفزة للانقضاض على الكلمات في مهدها، برغم أنف السنين الثماني التي انقضت، وبرغم أنف الظروف التي تدعي أنها تغيرت.. تلك المرارة التي عكست معاناتي آنذاك على الورق، حيث لم أجد لي مفرغاً غيره، أبته هموم أم تواجه حيرة أطفالها وألمهم أمام أحداث لا تخضع إلى منطق، ولا تعيها أذن واعية:

ماذا أقولُ إذا تعجَّبَ خالدٌ؟

ماذا أجيبُ، إذا تساءلَ مصطفى

طفلانِ ربَّيتِ الخلائقُ فيهما

قبلَ الجسومِ، على المروءةِ والوفاءِ

فلم يكن الوقت قد طال بي كثيراً، وقد أصبحت أمًّا، حتى أدركت خطأ المقولة المتداولة التي تدعي أن الصغار لا يفهمون، فقررت أن أفتح كل البوابات الممكنة بيني وبين أولادي، وها أنا ذي أجدني في واحد من تلك المواقف التي لا أحسد عليها، وقد نصحت لولدي أن يطلع على ما يجري من أحداث في عالم لا يفهمه صغار ولا كبار...

التمزق الذي أعانيه مأساة كل أم مسلمة، تتجاوز الأمومة عندها الغريزة، ويتجاوز البنون زينة الحياة الدنيا، إلى صنع الإنسان الكريم، فالحياة الكريمة، كما أرادها الله، واستخلفنا في الأرض لصنعها...

على الرغم من علقم الذكريات المتربص بي، في ليلة أشبه ما تكون بالبارحة، كان لا بد من تعليل النفس بمتعة محاوراة الصغار،

والتلذذ باستشراف عوالمهم النقية.. فقد كنت وما زلت أمارس ذلك الفن كوسيلة لبعث الخيال، وإحياء غضارة الروح لاستلهاها الصدق والنقاء، كلما شدني شوق إلى القلم...

ما أروع أن نصغي إلى الأطفال! صوت الحقيقة الناصع الذي لم تشوّهه الأكاذيب، ولم يمسّحه بهتان القوة الغاشمة.. صوت الفطرة القوي، بما فيه من إيمان، وقصد تلقائي، يلغيان بعبارة طفلة نظيفة جهود الظلام عبر قرون لطمس الحقائق وتشويه الوقائع.

ومرت في خيالي صورة، لا أذكر هل مررت أو سمعت بها، أم هي من بنات الخيال الذي تشحذه الحاجة.. لو أن الأطفال يحكمون هذا العالم! ودون روية توجهت إلى صغيري، الذي لم أعد أخفي عنه رغبتني في أن ينتظر ردي على استفساراته: نجيب.. ماذا لو جعلوك حاكماً للعالم؟

لم يفاجئني سؤاله كثيراً، ولعله لمس من بلبنتي ما زهده في الإجابات التي كان ينتظر، فرحمني ولم يمارس إصراره المعهود، وأطلق ضحكة صغيرة متهمكة: ... للعالم كله؟!

- أجل ...

قال بلهجة مسرحية: أتحر...

- أنا جادة... أريد أن أعرف إجابتك.

- ... كيف يمكن أن يحكم هذه الدول المختلفة في كل شيء حاكم

واحد؟!

من جديد فوجئت بمنطق الطفولة النقي، المنطق الذي يؤيده الواقع، ويكابره في التعامي عنه وتعميته المزيفون الذين يحملون بإخضاع الدنيا إلى مصالحهم ورغائبهم، واتخاذ أرض الله مزرعة يستثمرونها، وعباده سخرياً...

قلت أجارية: ... ليس كله.. فلنقل حاكماً للدول العربية.

صمت قليلاً ثم هز رأسه بأسف: لن يستمع إلي أحد.. سيقولون: ولد صغير!

- حسن.. فحاكماً للأطفال...

لم يكن هذا ما أريده، ولكنني كنت مجبرة على التنازل لجره إلى الحديث، وصرف اهتمامه عن طلب إجابة مباشرة لا أملها، أو استلهام كلامه إجابة قريبة المرمى من الحقيقة الحالكة، بدلاً من إجابة في صميمها، قد يضطرني إليها الكلام.

بدأت الحماسة تتوثب في عيني ابني، وهو يسوي جلسته استعداداً لحديث يهمله، وقال باندفاع: أولاً نتفق على أشياء...

- حسن، كيف تتفقون؟

هدأت حماسته قليلاً: ... ماذا تعين؟! .. نتفاهم...

- كيف تتفاهمون؟

قال بشيء من الاستغراب: أعني.. كالعادة.. هناك أشياء تهمننا جميعاً.. نتفق على تنفيذها..

أدركت أن الاستمرار في الحديث على هذا المنوال لن يخرج عن إطار: نتفق ونتفاهم.. وتعلمت من عدم قدرة أي منا على تجاوز هذا المطب الدبق، للانطلاق إلى فرجة في أسوار الواقع التي تسجننا.. وأخيراً بدأت أعزي نفسي، بل ألومها، فهل كنت أتوقع أن أخرج من جلستي تلك بحلول لمشكلات العالم!

عندما لمس ولدي دخولي من جديد في دوامة التفكير، انصرف إلى ما يهمه من الحديث غير ملتفت إلي، فأنهمك في شرح جملة مطالبه الطفلية، مصرّاً على التحدث بضمير الجماعة، كما لو أنه أطفال العالم كلهم.. وعاد رنين العبارات النحاسي الحاد، وبريق ضمير الجماعة الساحر يطفو على صفحة الفكر، وتدور رحاء الثقيلة، فتبرد سطحها الملائن نتوءات تحجب الشمس والهواء، ولا تكاد تسمح لأنملة بالتسلل إليها لتزهها، فتوقظ الإحساس في خلاياها الممتوتة.

لقد رفض أن يكون حاكماً من الطراز الذي نعرف.. لم يكن إلا واحداً من الآخرين، يعمل معهم، ثم يقدم الحل ببساطة.. الحل الوحيد الذي لا نجهله، ولكننا لا نطبقه أبداً.



من مذكرات هشام بن عمرو بن الحارث

٧ - حزيران - ٦١٩م

صورة صفار بني هاشم العجاف، يتراكضون في عجاجة من الغبار شُعثاً، مهلهلي الثياب، لا تريد أن تفارق مخيلتي.. تسدُّ علي أفق النظر والفكر، أينما وجهتهما.. أعز الناس، وأكثرهم رفاهية.. المطعمون المنعمون، جوعى حفاة عراة، أقصى ما يحلمون به بغير محمل بالطعام، يترقبونه في فرجة الشعب الأيام والليالي الطوال؛ ليسدوا الرmq بما يحمله من زاد، ويستمسكوا به في حصارهم المرير بين تلك الصخور القاسية...

الرضع، الذين قاوموا الموت.. الذين امتصوا الحياة من صدور أمهاتهم، كبروا.. عرفوا من الفرح.. الفرح باللقمة، بعد أن كان مقرراً لهم الفرح بريادة العرب، وسيادة تلك الأصقاع...

يا للجريمة! بل يا للعجز! إلى متى سأظل أختلس غفلة أولئك الجلادين الأجلاف، الذين يسدون المنافذ دون الحياة، وكأن غايتهم القضاء على «محمد» وصحبه...؟! لقد طال الحصار، وأربى الأمر على العداء.. ولم يعد يخفى على أحد أنه خدعة من الرؤوس الآثمة، انطلت على الناس، فأيدوا وعاضدوا.

... يا لتواضع ما تقدر عليه يا أبا عمرو.. ما تزال تخرج إليهم متخفياً، ببيعرك الموقر قمحاً وتمراً، برغم يقينك أن ثمة من يفعل مثل فعلتك.. فما يعقل أن تنتفي المروءة فوق تلك الرمال.. وما يعقل ألا تنجب تلك المفاوز الولود رجالاً ذوي ألباب سواك! يا أبا عمرو، ألم يئن للحق أن يجهر بما يجهر به الباطل!

ما هذا العتاب الرفيق الخانع لذاتك! وما هذا السكوت الشائن عما تقتضيه الهمة والمروءة! وما هو الثمن الذي تشفق أن تدفعه، إذا ما أخلصت لما تراه صواباً!؟

علي أن أتحرك، أن أفجر ذلك المرجل الذي يعتمل في أعماقي، فلا أفعل أكثر من زحزة غطائه قيد شعرة، كلما أحسست أنه على وشك الانفجار.. فلينفجر ذلك البركان، وليتم ذلك بحكمة.. وما استنجد عاقل بحكمته فخذلته.

٩ - حزيران - ٦١٩ م

اليوم لا شيء يعكر صفوي، وقد فرغت لشعور يحتدم في صدري، وينفث النار في أوصالي، ويشعل في نشاطاً بعد عهدي بمثله.. فقد أنجزت عملاً، أتاح لي نفساً عميقاً مريحاً، وأزاح عن صدري كابوساً ما انفك يحرمني لذادة ارتشاف الهواء أعواماً ثلاثة...

أن تشعر أنك تقوم بما لا تريده تحت ضغط ما.. أن تحس، أنك مصادر الإرادة والحرية، شيء فظيع، لكن ما يقتل حقاً أن يفرض عليك التصرف بشكل مخالف لما تريد، ثم يطلب منك تبرير ذلك التصرف، وابتكار الحجج المنطقية لإقناع الآخرين بسلامته وصحته.. هذا وحده كفيل بقتلك...

ما أشد ندمي وأسفي على كل يوم مضى دون أن أحسم أمري، وأفعل ما فعلت اليوم! حقاً إن الانتصار مثل الهزيمة، كلاهما يبدأ من الداخل.

لم أشك لحظة في أن تلك الفكرة تدور في رؤوس الكثيرين، أن ذلك التحرق إلى إحقاق الحق، وإزهاق الباطل، ليس حكراً علي، لكن ذلك لم يكن كافياً، ولم يكن ثمة بدّ من اتخاذ الأسباب بكل عناية وحرص. وقد هداني أعمال الفكر، إلى البحث عما أستطيع تسخيره لخدمة غايتي.

أستطيع استغلال ما جرى بين أبي الحكم، أو أبي جهل كما بات يكنى، وزهير المخزومي، لتفجير مواجهة بينهما، تتيح الفرصة لإعادة الحسابات.. يا لوقاحة هذا المتجبر وصلفه الذي لم يجد من يكبحه!

فقد تخدم الأقدار القوة الغاشمة بضعف من حولها، فتبتخر بحماقة قدرة، وتدوس كل من يخالف لها رأياً، أو تسول له نفسه النيل من سلطانها عليه.

أبو جهل لا يعترف بحق زهير، الذي تقرّه جميع الأعراف والناس، في برّ أمه، القابعة مع المحاصرين في شعب أبي طالب، وأخواله الذين يتولون شأنها، في تلك الظروف القاسية. وما حدث منذ أيام قليلة لا يزال يُحفظ زهيراً، ويجري على لسانه ما يستحقه أبو جهل من شنيع الصفات، كلما ذكر الأمر...

إن ما في أعماق زهير ليس الغضب من محاولة أبي جهل ردّ ما يحمله من زاد إلى أخواله، فتلك الشجّة البالغة التي نالها وجه أبي جهل كان يمكن أن تطفئ غضبه.. زهير في داخله يعرف أن أبا جهل يجب أن

يهزم، وأن الذين في الشعب يجب أن يتحرروا من قيد الحصار الآثم، لكنه لا يجد الطريق إلى تنفيذ ذلك. وهذا ما دفعني إليه: يا زهير... أما، والله، لو كانوا أخوال أبي جهل، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه، ما أجابك أبداً.

كم كنت واهماً، عندما حسبت أن زهيراً سيحتاج إلى الكثير من أمثال تلك العبارة قبل أن يقول: فماذا أصنع، وإنما أنا رجل واحد! والله، لو كان معي آخر لنقضتها.

وقدمت إليه الآخر.. أنا.

ولم يسألني أبداً عن غايتي من ذلك.. ولو أنه فعل لآلمني، وللمته.. لكنني، وفي غمرة إحساسي بنشوة النجاح، لم أنس ضرورة التوثق، وحسن الإعداد.

وعرضت عليه أن نشرك ثالثاً في أمرنا، فأشار بالمطعم بن عدي؛ لما له من سوابق في نصرة الحق.

ولم يخيب المطعم رجاءنا، لم يحتج إلى أكثر من عبارات قليلة، ملأى بالحماسة، والإيمان بصحة الأمر وصوابه وضرورته: يا بن عدي.. أرضيت أن يهلك بطنان من بني عدي بن عبد مناف وأنت شاهد ذلك، موافق عليه؟! أما، والله، لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً.

وهكذا أصبحنا ثلاثة، مسلحين بالحق والحماسة والمنطق، والرغبة الجامحة في إتيان الخير ونبد الشر.. ولم يكن الثمن أكثر من الجراءة على حاجز الخوف والوهم الخادع.

ووعدنا المطعم أن يسعى لدى آخرين يشدون أزرنا، وكان اتفاقاً بيننا أن نلتقي صباح غد جميعاً، في خطم الحجون، بأعلى مكة.

* * *

١١ - حزيران - ٦١٩م

لم أتوقع أن يحدث ما حدث بهذه السرعة، وبتلك البساطة.. بالأنياب الندم التي تنهشني، كلما فكرت في أن ما تمّ اليوم كان يمكن أن يتم قبل ذلك بكثير، وأن تلك الخطوة التي ولدتها الجرأة والمبادرة والشجاعة، كانت تستطيع أن تتقدم أكثر من سنتين! كم هو هائل الفرق بين التردد والحزم! فرق لا يدركه إلا من أتاحت له الأيام المرور بمثل تجربتي.

لم يتسنّ لي أمس كتابة مذكراتي، فقد أويت إلى مضجعي عند الفجر، وكان علي أن أخذ قسطاً من الراحة؛ لمواصل ما كنا قد بدأناه. والآن سأشرع في تدوين أحداث أجمل أيام عمري وأحفلها...

عندما توجهت إلى خطم الحجون، كان يخيل إلي أنني سأمكث طويلاً في انتظار زهير والمطعم، ومن قد يكون معهما، فقد غادرت فراشي، والغسق لا يزال يلفّ طرقات مكة. ولما شارفت المتعد لاحت لي عن بعد أشباح رجال ثلاثة. وعاجلني شعور بالامتعاض، فلم يرقني أن يرانا أحد مجتمعين قبل تنفيذ ما عزمنا عليه، وهجس في نفسي أن أعود من حيث أتيت، لولا أن رأيت الرجال الثلاثة يتجهون إلي، وكأنهم يرونني. وسرعان ما اكتشفت أنهم المطعم وأبو البختري وزمعة بن الأسود، ثم لم يلبث زهير أن وافانا.

لم يطل الحديث بنا، فقد كانت الكلمات معدودات، لم تتعدَّ الاتفاق على وجوب المجاهرة بنقض الصحيفة، وإعلان ذلك على الملأ.. كان كل منا مؤقتاً أن الكثيرين ينتظرون صاحب الخطوة الأولى؛ ليكونوا على آثاره. وقررنا أن نباكر الحرم غداً.. ولما كان زهير حديث عهد بمواجهة أبي جهل، فقد اتفقنا على أن يبدأ هو الإعلان عن نقض الصحيفة.

مضت سحابة ذلك النهار، والهواجس تأخذ بي كل مأخذ.. كنت شديد الاضطراب والانفعال، فلم أسخ طعاماً ولا شراباً، ولم أصب من النوم إلا غفوات قصيرة متقطعة، وكانت تأخذني خفة، وكأنما يطير بي جناحان لا أراهما.

كان موعدنا الصبح في البيت العتيق. ولما وصلت الحرم، بصرت بأبي جهل وأبي لهب في مجلسهما، بعد أن طافا بالبيت كعادتهما.. ورأيت زهيراً على بعد يطوف جاداً. وكان الناس بين طائف وجالس ومضطجع.. وجعلت أجول بعيني في أرجاء المكان، باحثاً عن المطعم وصاحبيه، فألفيتهم قد توزعوا في أرجاء البيت، كما تقتضي الخطة، فقد رأينا أن تبرز أصواتنا تبعاً، من أماكن متفرقة؛ لتبدو على غير اتفاق.

وعلى الرغم من أنني كنت أتوقع أن يرتفع صوت زهير في كل لحظة، فقد أجفلت حين دوى نداؤه، حيث بدا لي كقصفة رعد أخدمت لفظ الناس:

يا أهل مكة...

واستحال اللغظ إلى غمغمة لم تلبث أن أفضت إلى سكون.. واشترأبت الأعناق، وتطلعت العيون، تستكنه النداء الهادر: يا أهل مكة...

كان صوت زهير ثابتاً قوياً واثقاً، أسر الأسماع: يا أهل مكة.. أنأكل الطعام، ونبلس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم؟! وعلت غمغمة، وتلفت الناس لتواجه العيون بعضها بعضاً، أو كأنما لتبصر بعد عمى أعوام ثلاثة... وعاجلهم زهير كالتضاء المبرم، مصعداً الموقف مباشرة إلى نقطة الذروة؛ ليستغل الذهول الذي أحدثته الضربة المباغتة: واللّه.. لا أقعد حتى تشقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

هب أبو جهل مغضباً مهتاجاً، منتفخاً كيداً، مستطيراً شراً: كذبت، واللّه، لا تشق.

واختلط صوتي بصوت زمعة بن الأسود، وهو يشقّ طريقه بين الناس إلى حيث أبي جهل، ويلوح بيده صارخاً في وجهه: أنت واللّه أكذب، وما رضينا بها حين كتبت.

وصحت من مكاني: وما رضي إلا قليلون، لكنكم استخدمتم نفوذكم؛ لترغموا الناس على مظاهرتكم.

وتابع أبو البختري: صدق زمعة، وصدقت، لا نرضى ما كتب فيها. أضاف المطعم بلهجة جازمة، كمن يصدق أمراً قد أبرم: صدقتم جميعاً، وكذب من قال غير ذلك...

واستشاط أبو جهل غضباً، لكنه كان غضب المفلس الخزيان، فقد اتجه الناس إلا أقلهم إلى حيث انطلقت الأصوات، وانضمت التجمعات بعضها إلى بعض، مشكلة سَيْلاً يتدفق في اتجاه واحد...

تبدّد صوت أبي جهل، في خضم الأصوات.. وبصعوبة كبيرة أفلحت في التقاط كلماته، التي راحت شرذمة ممن حوله يهزون رؤوسهم موافقين على وقعها: هذا أمر قضي لبيل وأبو طالب بناحية المسجد... وطويت صفحة أبي لهب وأبي جهل، وانطفأ الصوتان ببساطة كالمعجزة.. استطعت، بعد عناء، الوصول إلى زهير.. تعانقنا، وهممت أن أقول له:

أنا ماضٍ إلى تلك الصحيفة الملعونة؛ لأمزقها.. عندما علت جلبة الناس، واندفع المطعم يجتذب الصحيفة عن الستار المغبر، ويفض غلافها وسط الجموع المهللة.. ويمزقها...

* * *

١٢ - حزيران - ٦١٩ م

لم أستطع الاجتماع بأصحابي الأربعة بعد، فقد ألهمت الفرحة الناس عن كل شيء، وراحت الصفقات المبدئية تعقد في البيت، وأكوام الطعام والثياب تحمل إلى أبيات آل هاشم، وآل عبد المطلب، وتقاطرت النعميات بلا ونى، فأبرم أكثر من زواج في ساعات ذلك اليوم الحافل الذي لا ينسى.

عندما استيقظت هذا الفجر، كانت نشوة حلم مرّ بي، أو مررت به، في سويعات الليل، لا تزال تحمل إلى أطرافي وروحي خدراً لذيذاً.. تحسست يدي الخشنتين، وابتسمت.. كيف أمكن أن تكون هاتان اليدان يدي امرأة! امرأة تأتي بعدي بألف وثلاث مئة وواحد وثمانين عاماً؟! امرأة تلبسني وتحتويني.. تعيرني يدها ولسانها، لأكتب لقوم لا أعرفهم، في زمن لا أعرفه، ما دار هنا ذات يوم.

امرأة! هل تتغير في ذلك الزمن النساء؟!!

فتاة من كوسوفو

رأيت صورتها في معرض للتصوير الضوئي، شقراء لطيفة
القسمات، ذات سنوات عشر، وحجاب سماوي صغير، هو السبب في
كل المآسي التي تحتزنها نظراتها الطفلة.. غصت في بحار عينيها
الرمادية الساجية.. كانتا تشفان عن كنوز من الحكايا.. وقفت أمام
حزنها الأبيم بإجلال وخجل.. فأحزان الأطفال تلجمني.. تملؤني
مرارة ووجومًا.. تدفع بي إلى الهرب من عجزتي ومسؤوليتي عن كل ما
هو جميل وفاضل وطيب في هذا الكون.

خيّم المساء.. وفي المساء أحسّ بخوف يشلني.. الحرش الكئيب،
وجدران الخيمة الرمادية ذات الشرائط الزرق، وعلب الألعمة
المنضدة في الزاوية، وصرة ملابسنا التي يضطجع فوقها أخي
الرضيع، والمصباح الأسطواني المعلق، ووجه جدتي، الذي لم أعد
أذكر كيف كان بلا دموع، وصور حزينة من كوسوفو.. أتمسك بها برغم
ما تبعته في من ألم.

أبي الذي لوّح لي وهو يخرج من باب الحديقة راکضًا، بقميصه
الأصفر ذي الكمين القصيرين، ورشاشه المشهور، ولم أره بعدها قط.
وأمي.. ويغوص في صدري شيء كالسكين.. أحقًا لم تعد هناك من
أدعوها: ماما!

وأنتفض مذعورة: لا.. إنها هناك.. بطريقة ما ستكون هناك، في بيتنا.. تكوي سراويل أبي قرب النافذة.. تقلي البطاطا في المطبخ، وأنا أقف وراءها بصحني، فتضع فيه بعض الأصابع، وأنفخ فيها لتبرد، فأكلها.. إنها هناك تفتح الستائر عند الصباح، وتنحني فوق سريري تقبلني، وتقول: حبيبتي.. هيا.. وقت المدرسة.. لم لا تكون الآن أمام الباب تنتظرني حاملة محمداً، وطعام الغداء في أوانيهِ ينتظر على المائدة!

لكنها ماتت.. هي الآن ملقاة في مكان ما، شعثاء معفرة ملطخة بالدماء.. ولا تستطيع أن تجيبني إذا ناديتها...

وأهتف، والدموع تخنقني: أمي.. ماما.. ماما...

وأحس ذراعين تحتضنان جسدي.. دافئتين، حنونين، لكنهما ليستا ذراعيتها، أستسلم لذات الذراعين الحنونين، وأسمع صوتها من فوق رأسي: الخنازير.. النجسون.. يريدون إبادتنا...

وأظل أبكي بإصرار؛ لأشأغل عن تلك الكلمة الرهيبة.. وجدتي تبكي.. وجاراتنا في الخيمة يبكين. بينما يغادر بعض الرجال وهم يشيحون بوجوههم؛ كيلا تفضحهم تعابيرها.

وينطلق صوت المذيع الصغير، الغارات تتوالى على كوسوفو.. ويضيف المذيع كلاماً آخر، يضيع في موجة من لفظ غاضب، وتصيح امرأة من بعيد: يا ويلي! لم يبق في المدينة شيء...

يسقط في صدري شيء ثقيل حاد.. بيتنا.. خزانتي.. بنياتي الأثيرات: الشقراء التي انفصل رأسها، فثبته أبي بالغراء.. والرضيع

الأصلع ذو الأطراف المرتخية والعينين المغمضتين.. وقطار محمد الذي أخبئه عندي ريثما يكبر.. والدب ذو الدراجة...

فجأة، وكما تهب الريح في الليل، يقتحم الخيمة شاب يحمل رشاشاً.. نتراجع مذعورين، فيصيح مهتاجاً متقطع الأنفاس: إلى الدغل.. إلى الدغل.. بسرعة.. احتموا بالأشجار.. وتعمّ الفوضى.. تهب جدتي ممتعة متعثرة بثوبها.. تنحني بجسدها النحيل لتخطف محمداً الذي أيقظه الصراخ.. تحكم غطاء رأسها، وتناولني بطانية صغيرة، تلقي بها، كيفما اتفق، بين ذراعي، فأجهد لإحاطتها بذراعي، ثم أضمها إلى صدري، مشرّبة برأسي من فوقها؛ لأتبين طريقي، ثم أهرول بين الجموع لاحقة بجدتي...

أقدام متصادمة متعثرة تدوس قدمي من الخلف.. تتخلع فردة من حذائي، فأفقد توازني، وأقع أرضاً، ثم أنهض ذاهلة عن البطانية، وأعيد حذائي إلى قدمي بعد محاولات عديدة أحبطها التدافع والاضطراب. وأتفقد جدتي، فأراها على مسافة قصيرة متوقفة تبحث عني بعينيها، وهي تشد محمداً الباكي إلى صدرها.. ألتحق بها، فتتهف مستنكرة: أين البطانية!؟

وألتفت إلى الورا مذعورة: .. وقعت.. وتصفعني بثورة بأسة، ثم تضيف متوجعة مشفقة: يا غبية.. ستموتين من البرد.. وتتركني وأنا أبكي، وتتكص عائدة أدراجها، وسط الجموع المندفعة إلى الدغل.. وأراها من خلال دموع القهر والشقاء في عيني، وهي تنحني لتلتقط البطانية، وتتفضها من الغبار بيد واحدة كليله، ثم تحتضنها مع أخي، وتعود إلي، وقد اختفى كل أثر للثورة من عينيها.

عندما استيقظت كان ظهري مثلجًا، وثمة ألم في كل شبر من جسدي. لقد أمضينا الليل في الغابة، على جذع ضخم مستلق. كانت جدتي تغفو مسندة ظهرها إلى أصل شجرة عتيقة، وقد فغرت فاهًا، ولفاعها الصوفي الأبيض يحيط برأسها وعنقها وكتفيها.. وفي حجرها ما زال محمد يغفو.. أما أنا فكنت جالسة بجوارها، وقد ملت برأسي إلى فخذها، والبطانية تحتضنا جميعًا.

كان أحدهم يصنع الشاي في برميل نظيف، فوق حجارة تبرز من بينها أغصان جافة، تلتهمها النار. وكانت هناك سيدة تحمل كيسًا من النايلون ملآن خبزًا، وأخرى تحمل كيسًا ملآن أكوابًا من الورق المقوى، عليها صليب أحمر، فوق أحرف زرق. ونسجت هذه المشاهد حلمًا صغيرًا.. وحركت شعورًا بالجوع لم أكن أفطن إليه.. سأتناول شايًا ساخنًا.. وأحسست بشيء من الراحة...

كوب الشاي الورقي، لا يكاد يحجب حرارة السائل القاتم عن راحتي، فأتجلد لها، وأركز عقب الكوب على ركبتي العارية، لكنه يلسعها، فأسرع برفعه من جديد، وأظل أنقله بين كفي الباردتين، حتى بت أطيق إبقاءه في يميني، كما اعتدت أن أفعل، عند ذلك فرغت لجدتي، ورحت أراقبها تلقي بقطع الخبز الصغيرة في كوبها، ثم تلتقطها بإصبعيها بخفة، وتنفخ فيها، ثم تدسها في فم محمد فيلتهمها بنهم.. وكان سعيدًا، يضحك ويرفس برجليه، حتى خشيت جدتي أن يندلق الشاي عليهما، فتبرعت بالإمساك بكوبها، حتى تفرغ من إطعام الصغير.

حملت الكوبين الورقيين لإلقاتهما في برميل غير بعيد، خصصوه لجمع القمامة، فاعترضني صبي في سترة بنية متهدلة، كأنما قد نام

وهو يلبسها، كما تقول أمي، ونظرت إلى ثوبي المغضن، ورحت أمسده براحتي.. لاح لي وجه أمي الذي يعذبني، وتجمد كل ما في، وضرب ركبتي جسم صلب، حتى كدت أجلس في مكاني.. في هذه اللحظة واجهني الصبي، كان يبتسم، وقد حاذى وجهه قرن طويل من أكواب الشاي المستعملة.. نظر إلي، ثم قال بتردد، مشيراً بعينه إلى كوبي: لا تلقي بهما.. نصنع منهما أشياء جميلة...

مددت يدي بالكوبين إلى الصبي، فنظر إليهما، ثم إلي، وقال: اغسليهما أولاً، ثم تعالي أعلمك.. وجلس حيث هو متربعاً فوق العشب.. ظللت واقفة وقد ساورني شيء من الامتعاض، وقلت: إن أعجبني ما تصنع غسلتهما، ثم صنعت مثله.

نزع قبعته وألبسها ركبته، ثم وضع أكوابه أمامه، وانحنى على واحد منها، يشقق حافته بأصابعه شقوقاً متساوية الأبعاد متساوية الأطوال ما استطاع.. ورحت أرقبه بفضول، وهو يلوي الحواف المهدبة، مدخلاً الأهداب على التوالي في الشقوق.. وفي لحظة صم الآذان أزيز مروع، ودوى انفجار هائل.. وتبعثر كل شيء.. وانسكب على الحرش كله لون أسود.. أخضر.. وملاً الفراغ كله فحيح متطاوول.. لا شيء.. لا شيء.. لاش.. لاش...

تسلل الضوء من بين جفني الحارقين الشائكين.. وأحسست كأن فوقني ثقلاً يقيدني بقوة، ويمنعني من الحركة.. كوبي.. أين كوبي الورقيان؟ أين الصبي؟ قال: إنه سيعلمني كيف أصنع شيئاً جميلاً.. أين أنا.. فتحت عيني مستطلعة.. الأحداث تستفيق متثاقلة.. الحرش،

وجدتي، ومحمد الجميل يرفس ويضحك، والصبي ذو الأكواب يشرع في الجلوس بأكواب الورق المتداخلة.. والانفجار الفظيع...

وانتابني الذعر.. ووجدتني عاجزة عن الصراخ أو الحركة.. رحمت أنتحب باستسلام وعجز.. أخذتهم موجة القذائف.. الموت.. فجأة صرت أعرفه أكثر من كل شيء.. لا بديل من الهرب، بأي طريقة كانت سأهرب.. الآن سأهرب.. لا أريد البقاء هنا ولا هناك، ولا في مكان يعرفه الموت، أو أعرفه أنا...

أحسست بيد مضطربة حنون فوق جبيني، كان وجهًا لا أعرفه.. شابًا في لباس أبيض.. أردته أن يكون الصبي، فلم أنظر إلى وجهه، بل رحمت أتفقد قرن الأكواب في يده.. وأستعيد مناظر أصابعه البارعة وهي تشقق الحواف وتلويها. و... انحنى الشاب مقربًا وجهه من وجهي، وابتسم قائلاً: سيأتي والداك الآن...

والداي!

عرفت أنه يكذب علي.. عرفت أنني.. ضائعة، جريحة، وحيدة.. أغمضت عيني، ورحمت أغوص إلى عالم حارضا غط مظلم، لا جدران ولا أرض ولا سماء له...

لم يكن في وسعه أن يفعل شيئاً.. فراح يمسح دموعي بأصابعه العارية المثانة العاجزة...



البشارة

تلازمني، كالقليل مما يعلق بالذاكرة لسبب غالباً ما نجهله، عبارة
الشيخة ربّوع: «هذه البنت ستكون تقيّة!»

عبارة الشيخة ربّوع، هذه، رافقتني دون ضجر أو ملل، في دروب
العمر المتشعبة، وأنا أنوء بعبء قلب لا حدود لمغامراته، ولا آفاق
لمراماته، وذهن متشظّ، رمى بي كل مرمى، حتى بت أردد بتأمل:

مِنْ كُلِّ مَا نَالَ الْفَتَى قَدْ نَلَّتْهُ

فكانت تتمثل لي في أقصى حالات الصفاء والتسامي التي يمنّ
الله بها على من يشاء من عباده، كما تتمثل لي في أقصى حالات
الاهتصار وزلزلة الروح المعذبة بما يحيط بها من دناءات البشر
وقسوة الواقع...

كنت أحضنها منيية أو معجبة، أو أواجهها ساخرة متهكمة. لكنها
كانت هناك، في نقطة ثابتة من قاعدة الذاكرة والوجدان، لا يتغشاها
الظلام، ولا يطمس معالمها الظلام. وما أزال إلى يومي هذا أعجب
من تلك الظروف التي اجتمعت، فنقشت تلك العبارة في ذلك الموضوع
مني، وما أزال لا أجد لثباتها ذاك مبرراً مقنعاً، إلا أن تكون من ذلك
الكلم الطيب الثابت الأصل في الأرض، الباسق الفرع في السماء، يؤتي
أكله كل حين بإذن ربه.

كنت في السابعة من عمري عندما استولى علي شعور بأنني أرى، وأسمع بكل خلية من جسدي.. فقد وجدتني مزودة بعينين مفتوحتين، وأذنين سماعيتين، وقدر من الحيوية كثيراً ما قصر الجسد والظروف عن مجاراته، حتى غدوت مثار شكوى لكل من حولي.. وما أزال أذكر كيف كنت أعجب من أنني دائمة الكلام.. حتى كنت عندما أمتثل للأوامر فأطبق شفتي، كان يخيل إلي أنني أتكلم في داخلي...

أقلقني ذلك بعض الشيء، وربما أخافني، وسألت لداتي، فلم أجد إجابة أشفى من: نحن نتكلم مع الآخرين فقط، وإذا لم يكن ثمة أحد صمتنا...

ولم تكن تلك الإجابة ما أريد، ولذلك لجأت إلى أبي، وكان المرجع الأعلى بالنسبة إلي، فكان جوابه: إنها الروح.. تفكر دائماً.. إنها النفس الأمارة بالسوء...

وعندما استوضحته معنى الأمارة بالسوء، أدركت أنه، هو الآخر، لم يفهم مرادي. فالحديث المستمر الذي يقلقني لم يكن سيئاً دائماً.. إنه كالحديث العادي، وأنا بنت طيبة، أكثر أحاديثي لا تمت إلى السوء الذي ذكره والدي بصلة...

لم يضايقني كثيراً عدم الحصول على إجابة شافية، ولم أعد للبحث عنها، بل رحت أتسلى بأحاديثي الداخلية، وأعجب من قدرتها على الاستمرار والتواصل حين يتعب لساني، ويكل جسمي، بعد نهار طويل من الحركة الدائبة، ولا سيما في نهارات الصيف الطويلة المرهقة.

كنا قد اعتدنا قضاء بعض الصيف في بلدة (الباب) القريبة من (حلب)، حيث أخوال أبي الطيبون، يرحبون بأبناء أختهم التي كان قد اختطفها الموت في ريعان الشباب. وكنا - نحن الأحفاد - في موضع الصدارة من ذلك الترحاب والتدليل والإكرام.

كان أحب أوقات النهار إلى قلبي، في تلك الزيارات الصيفية، وقت الغروب، حيث تقوم النسوة بغسل أرضية الدار المفروشة بالإسفلت الرصاصي الصقيل، ويفرشنها بالحصر (البابية) المشهورة، والوسائد المحشوة بالصوف بسخاء.

وكانت أمي -رحمها الله- في ذلك الوقت تمتح الماء من بئر الدار دلوًا إثر دلو؛ لتغسل بعناية وجوهنا وأيدينا وأرجلنا، وقد يتطور ذلك إلى حمام كامل بالماء البارد، تتخلله احتجاجاتنا وتوبيخاتها، بسبب كمية الأوساخ العالقة بأجسادنا الصغيرة. وكانت تلك المعارك اليومية الطريفة تنتهي بجلسة هائلة على الحصير في ثياب نظيفة، ونشوة صمت ما بعد التعب.

وبينما تتضوع رائحة الطعام اللذيذ الذي يكتمل نضجه استعداداً للعشاء، ينطلق من المذياع الضخم، الجاثم بمهابة فوق إفريز الشباك العريض، صوت «المقرئ الشيخ عبد الباسط محمد عبد الصمد»، كما كان يفرض علينا أن نقول، مجلجلاً يتلو قرآن المساء. بينما هذه الأمور تجري، تحت رقابة الشمس المتتأبة، التي تسحب ملاءة النور عن أعالي الجدران شيئاً فشيئاً، لتلتحفها استعداداً للنوم، كما كان يحلو لي أن أتصور، بينما كل ذلك يحدث يتهالك جسمي، ويثقل جفناي،

وينطلق الحديث الداخلي طافياً تارة، وغائضاً أخرى، في تضاعيف أمواج صوت «المقرئ الشيخ عبد الباسط محمد عبد الصمد» وعبارات النسوة المقتضبة، المسروقة في الزمن الفاصل بين الآيات، عن الطعام الذي قد يكون نضج، وهدوء الأولاد الذي يخشين أن تحسده أعينهن، ووجوب تفقد القمح المسلوq المفروش على السطح...

كثيراً ما كانت أحاديثي الداخلية المتوثبة تدور حول ما يقرؤه «المقرئ الشيخ عبد الباسط محمد عبد الصمد»، وكنت أفهم ما أفهم بطريقتي الخاصة، بعد أن يئست من تفسيرات الكبار، أو لم تعجبني، أو لم ترضِ خيالي، حتى قررت بشكل جازم عدم الاستماع إليها، وذلك عندما قال «خالو الشيخ طيب»، كما كنا ندعوه: إن الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر التي سجدت ليوסף هي إخوته وأبواه.

كان خيالي يجد متعة في تصور الكواكب والشمس والقمر وهي تتحني لذلك الصديق الجميل. فأنا، وإن كنت لم أتوصل إلى تصور حسي مقبول لكيفية سجود هذه الأجرام، فلسان حالي يقول: ولم لا ..! أو لا يستحق ذلك؟ ثم .. كيف يسجد الأبوان لابنهما؟

في مثل هذا الوقت من كل يوم كانت الشبخة ربوع تأتي، ولم تسترع انتباهي قط، على الرغم من حديث الجميع عن تقاها وورعها، وكرامات أبيها الذي لا تحرقه النار، ولا يخترق جسده الرصاص! كانت مثل كثيرات أراهن، عجوزاً ضئيلة، تلتحف السواد، وتسير متوكئة على عصا معوجة جافة.. كانوا كثيراً ما يدعونني إلى تقبيل يدها، أو يدعونها إلى قراءة آيات من القرآن على رأسي؛ عسى أن يعمل ذلك على تهدئتي والتخفيف من عرامي الصبياني، الذي يضيقون به.

وذات غروب، كنت في جلستي الممتعة المعتادة، وقد استندت بظهري إلى وسادة قاسية، ومددت ساقي المتعبتين، وثبت عيني على قطيطة بيضاء شريفة، تجثم فوق الجدار المواجه، كان قد قيل لي: إنها الوحيدة الباقية من ست قطيطات ولدتها أمها تحت درج السطح، ثم التهمتها واحدة إثر أخرى!! وكنت، بعد مضي أيام طويلة، قد تخلصت من حالة الاشمئزاز والفرع المروعة، التي كانت تتنابني، كلما وقع بصري على هذه القطيطة. والحق أنني لم أكن أنظر إلى القطيطة تمامًا في ذلك الغروب، كنت فقط أتخذها موقعاً أثبت بصري عليه، إذ كانت أمور كثيرة أخرى تشغلني.

فثمة اليوم، إلى جانب الطعام اللذيذ، خبز شهوي، يخرج الآن من التنور كعكات طازجة سمراء، تفوح منها رائحة القمح والنخالة الذكية، وما كان الوقوف أمام التنور، كعادتي، ليفوتني، لولا ذلك الألم البغيض الذي يصلُّ له عظم ساقي المجهدين بجريي طوال النهار في الأزقة القريبة الظليلة والمشمسة، والتنقل بين دور الأقارب المتلاصقة، للعب حيث أجد أولادًا.

وكان إلى ذلك أيضًا «المقرئ الشيخ عبد الباسط محمد عبد الصمد»، الذي كان قد قرأ لتوه بصوته الرخيم المنغم: ﴿وَأَيُّلٌ إِذَا سَرَ﴾ وكنت لحظتُند أحاول تصور السريان مقارنة بزحف الأفعى.. فقد كنت، مذ ولدت، بنتًا للطبيعة، عشت خمس السنوات الأولى من عمري في مزرعة عتيقة معمرة الشجر والأسيجة والمسالك، تعرفت فيها أسرار الطبيعة، نباتاتها وحيواناتها وحشراتنا، فأغنت معلوماتي، ورسمت خطوط خيالي...

كانت صورة الليل الذي يسري تستغرقني.. كان سواداً شفافاً كملاء هفهافة، موشاة بالنجوم، تسحب في السماء رويداً، تحف بها أنغام النسيم المنعشة، التي تدغدغ سكينة الليل وسجوه.. وبينما أنا في ركاب ذلك الساري الساحر، الذي امتلك علي مشاعري، انطلق صوت الشيخة ربّوع من مكان قريب، من مجلسها على الحصر نفسه: هذه البنت ستكون تقيّة.

انتزعتني العبارة من عالم أحبه. ولكنني، لسبب ما، لم أمتعض. وعندما حولت بصري إليها، أدركت أنها كانت تتأملني في شرودي.. ولا أدري ما الذي أوحى إلي أنها كانت تفعل ذلك منذ وقت طويل.. كما لا أذكر تماماً لماذا استخفني الفرح لهذه الشهادة، لعله موقف أمي، التي رمقتني باعتزاز مكتوم لم يخف علي، بل ذكرني بما لا تفتأ تقوله لي في لحظات الصفاء: أنت طيبة، فلماذا تتشاقين، وتسببين لي المتاعب؟!

ولم أستطع قط إجابة ذلك السؤال، ولكنني في كل مرة، كنت أعتزم الالتزام بما يرضيها، ثم أجدني أعيد الكرة، لسبب أو لآخر، كأن أنسى أو..!

لقد مرت سنون طويلة على تلك العشية، التي خلدتها كلمات الشيخة ربّوع -رحمها الله- فإنني ما زلت وسأبقى، إن شاء الله، أنفق دلالة تلك العبارة، وأتعهد معناها الموحى والملهم في الوجدان والواقع، وأستحضر ظلالها التي امتدت سخية مباركة على واحات الأيام وصحاريها، دون كلل كلما نادتنى بارقة توسمت فيها خيراً في طفل، تتيح لي الظروف لقاءه أو حوار، وكلما اقتضى حال من أحوال هذه الدنيا كلمة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء.. تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

قائيل يلحق بهابيل

واجه الشمس ثانية.. كانت تلوفي الأفق البعيد.. نظر إليها بلا
مبالاة، ثم بحسرة.. كانت تمنحه الارتياح.. كانت تملؤه نشاطاً...

التفت إلى الجثة المرمية هناك.. الريح تحمل إليه رائحتها التي
غدت كريهة.. وعاوده الألم البغيض.. لا مهرب من المزيد من الألم..
يداه هاتان صنعتا ذلك الألم.. وحوّل عينيه عن يديه المتصلبتين.

- لو أن هابيل لم يعتد علي.. كم كان قاسياً! ...

وأحس بإرهاق شديد.

- وهو الآن أشد قسوة ...

واستشعر شيئاً كالسهم الناري يشق صدره.. لو أنه يضمن أن أخاه
المشلول الأبكم ذاك لا يسمع، إذًا لصرخ ملتاناً معلناً ألمه...

نهض، واقترب من الجثة.. ليس هذا هابيل الذي يعرف.. ودار حوله
باحتراس، فقد توقظه حركته، ويعود إلى لعب ذلك الدور البغيض..
وبلهفة هتف: فليعد...

واستدرك: على أن يظل بلا حراك...

ليت هذا يحدث، وسيحمله على عاتقه دائماً...

الوجه كما كان بالأمس.. بل لقد ازداد سوءاً.. الجثة كلها، هايبيل كله يزداد سوءاً.. والحق أنه لم يبقَ ثمة هايبيل.. وتلفت حوله مذعوراً.. وعاد يجثو إلى جوار أخيه المسجى بلا حراك، مدّ يده يلمسه.. إنه بارد كالأرض...

ماذا يفعل الآن؟ ما المخرج من تلك الحالة البائسة؟ كيف صار هايبيل هكذا؟! لقد أراد أن يكف أذاه فقط.. أراد أن يجعله بلا حراك فقط.. يجب ألا يبقى هكذا.. يجب أن يعود كما كان.. لا.. ليس كما كان.. فقط يجب أن يتحرك، ويكلمه.. ولكنه لا يفعل.. هل كانت ضربته أقسى مما أراد.. ما كان بالإمكان أن تكون أقل قسوة، فهايبيل قوي، ولا بد من ضربة قوية للتأثير فيه.. كان الأقوى في كل شيء، حتى إن قرابينه كانت تقبل دون قرابيني.. كان يدعي دائماً أنه الأفضل.. وأحس قابيل لحظة قصيرة بالغضب.. وتململ، وقد تملكه ذلك الحقد المر والتهمرد الأعمى اللذان يعرفهما.. لم أعد أستطيع احتمالاه.. لم أعد..

وسكن الغضب فجأة وهو ينظر إلى الجثة الهامدة.. ولكن ما كان يجب أن أكون بهذا العنف وهذه القسوة.. وفار شيء كالنار في رأسه، وهب يذرع التل مهتاجاً، ثم اندفع إلى عمق الكهف، حيث أطلق لصوته ودموعه العنان.. هكذا كان يفعل دائماً هو وهايبيل، عندما يفور شيء في رأس أي منهما.. وارتفع نشيجه حتى أربعه الصدى المدوي، في الكهف الرطب الموحش.

فقد رغبته أو قدرته على رفع صوته بالبكاء، فخرج إلى جثة هايبيل.. كانت الشمس قد امتدت فوقها...

- هل يستيقظ الآن! كانت الشمس توقظه.. ليبتها تفعل الآن...

انحنى، وقلب الجثة برفق ورعب.. عيناه مفتوحتان، والشمس تتسكب فيهما.. لكنهما ليستا عينا هابيل اللتين يعرف... وتمتم: كم كانتا براقيتين صافيتين جميلتين.. كله كان جميلاً.. وقويًا.. أجل، قالها وهو يمعن النظر في عيني أخيه، كأنه يختبر سكونه الأبدي المخيف، وأضاف: وكان قادرًا، يجد المخرج من كل الشدائد.. النار، الفيضانات، الحرائق، الوحوش.. كان أبرع وأقوى مني.. وخفض صوته بالعبارة الأخيرة، فهو لم يصدق بعد أن هابيل لن ينتصب في أي لحظة كانت ليعود كما كان.

وشمله الذعر.. لو أنه نهض الآن لسامني سوء العذاب.. وساوره شيء من الأمن المرر.. لكن نظرة إلى الجثة الهامدة أعادت إليه الخوف والغم...

- كان يمكن أن أحتمله قبل أن أفعل به ما فعلت، أما الآن...!

ومثلت به هواجسه، احتار أي الوضعين أفضل: أن يعود هابيل إلى سابق عهده فينتقم منه، أم يبقى هكذا فينجو هو من الانتقام، ويفقد أخاه! كلا.. الأمران لا يطبقهما. واكتشف أن ما كانت عليه الأمور قبل فعلته تلك كان الأفضل، على الرغم من كل ما كان فيه. وأدرك مفجوعًا أن ما كان لن يعود، وغلبه الخوف من أخيه ومن فعلته.. ما العمل الآن؟ لا بد أن يبقى هابيل هكذا.. ولكنه لا يقوى على احتمال الألم الذي تسببه له حالته.. أي دوامة تلك التي وضع نفسه فيها! أي ألم قاتل ذاك الذي تجرعه إياه يداها!

وانتصب ضارباً رأسه بكتفا يديه: أيها الرأس القذر، يا من دفعتني إلى فعل ما فعلت، لن تحل أبداً محل هايبيل.. لن تستطيع ذلك.. لو كنت قادراً على تقديم الخير إلي لما جعلتني أفعل ما فعلت.. وتلفت حوله، كانت السفوح البعيدة المبتورة القمم تتوالى بوحشة، مقبضة إلى ما لا نهاية، والغابات الداكنة عن يمينه تنغلق على الأخطار التي ترعد الفرائص، وتغرس في النفس الوحدة والضياع...

وفجأة انطلقت من ورائه أصوات منكرة جمدت الدماء في عروقه.. كانوا يزحفون صاعدين إليه.. النمر الحديدية المتوحشة، والضباع القذرة الجوعى، والأفاعي اللثيمة الرمادية الرهيبة...

ولم يكن أمامه ما يفعله.. لا مهرب، لا منجى.. واندفع، كما كان يفعل أمام كل خطر، نحو هايبيل، ركض إليه بكل قوة بساقيه المرعوبتين.. الآن سينهض هايبيل.. كما في كل مرة، لا يمكن أن يتخلى عنه...

انهض يا هايبيل... أخ...

ذبحته الكلمة قبل أن يتمها، ولكنه كان قد نسي كل الكلمات ما عداها، ومد صوته بنداء معول لم يسمعه سواه: أخيد...

وارتمى على الجثة الهامدة يحتمي بصدى ذكرى تلفظ آخر أنفاسها.. ونظر إلى الأعداء يقتربون أكثر عدداً وأثبت خطأ.. وحمحم متوسلاً يائساً: سيدركوننا.. وهزه بعنف، متوسلاً: هايبيل.. انهض.. ماذا أفعل يا هايبيل؟

ولم يجب هايبيل...

انتصب قاييل مستطار اللب، ونقل بصره كالبرق بين الخطر
 الزاحف كالموج العاتي، وجثة أخيه... وكمن يغرز خنجرًا في صدره،
 ويشهق شهقته الأخيرة، ركل الجثة مذعورًا، فتدحرجت باتجاه الوحوش
 الزاحفة. وأطلق ساقيه للريح، وهو يمسك برأسه مولولاً في جنون..
 هاييل.. هاييل ...

عدت الوحوش على جثة هاييل، وتلذذت بتمزيقها، وتوزعتها
 مطمئنة، إذ لا حاجة بها إلى الاستعجال، فهي لن تتجشم عناء
 المطاردة والقتل، فالآخر لن يهرب؛ لأن جثته مرمية على بعد يسير
 بلا حراك ...

«لقد قتل قاييل هاييل، أما قاييل فقد قتله الندم».



الشاعر والشمس والقلم

عبر الواجهة الزجاجية الواسعة، بدأت عيناه رحلتها الصباحية المعتادة، إلى الأفق المشعشع بأول خيوط النور، وهو يردد من أقاصي الروح التي يمنحها قرآن الفجر الخاشع القوة لمواجهة أعباء يوم جديد: اللهم، أنت السلام، ومنك السلام، تعاليت يا ذا الجلال والإكرام ...

نهض خفيفاً، وفتح النافذة.. عبّ في نفس عميق شاكر مستسلم وقوي عبير الصباح الذي يعيش.. هذا النفس يشعره أنه يمتلك كل ما يحب.. يمتلك روعة انبعاث الحياة، التي يتوفاها بارئها، ثم يطلقها مع شمس كل صباح حية متجددة، في صورة، تهزه حتى النخاع، عن ذلك اليوم الذي لا ريب فيه حقاً وصدقاً، وكما يرى ويسمع ويعي كلما أشرقت شمس يوم جديد. ويمتلك النسيم الآتي من بعيد.. من حيث لا يدري.. من الصدور الفرحة والحزينة، من الشجر في السهوب والسفوح والوديان، من المحار في ظلمات البحر، من العصافير التي تغدو خماصاً وتروح بطاناً، من خفق أشرعة السفن العائدة والمسافرة. ويمتلك النور الوليد النقي الواعد بالعطاء والحياة.

الفوضى الشعرية اللطيفة تضيء ألفة على الغرفة، والقهوة لا تزال تنتظر الرشفة الأولى، والقلم يبدأ، بين أصابعه المرهفة، مقدمة مقطوعة هذا الصباح.

راح يبادل رفيق الإحساس غبطة اللقاء، ويروي عطش الروح المبدع إلى لذة المشاركة ونعمى الود، ويسمع ... إنه يسمع حقاً حديث القلم: أحبك.. لن أخذك أبداً.

يدخلان معاً عالم الروح، يحس دفئه في راحته، أو دفء راحته من حوله، يرفعه إلى خده، يمر به على شفثيه، ويداعب به شعره، فيغمره أمان شهى.. ويرتشف القهوة على ضفاف الأفق.. ثم يعود إليه، فيراه مشوقاً متشوقاً، بيتسم له كمن بيتسم لحبيب، فيحتضنه بين أصابعه وراحته من جديد.. يفور في القلب الإحساس، وتضطرب في الروح الرؤى، وتلهب الشعور والخيال الأحداث والحكايا، وتتصهر الأصابع والقلم، وتشرب الصفحات الأصداء إبداعاً معجز الجمال والكمال.

بهذه الروعة يتماهى قلبه الشاعر والقلم، بهذه الروعة يلجّ خلد الإبداع كل صباح، ليقبس من هناك ومضات كالسحر، يترجمها قلمه الموهوب، أنفاساً ترتشفها صدور المتعطشين إلى النقاء، في سجن هذا العالم الملوث.

ترتفع الشمس متلهفة، تنفخ الذين يصنعون الحياة مما أودع الله فيها من أسرار الحياة.. تطوي الأفق إلى شرفته.. تتلبث بانتظار عينيه.. يطول انتظارها، فتلتهم المسافة المتبقية إلى قبة السماء؛ لتكون أقرب إليه، لتسكب بصمت فوق الأرائك، وتعلو بحذر سطح المنضدة، لتتأمل بافتتان أصابعه الملهمة، وهي تحتضن القلم، وترسم معاً على الورق حياة فريدة، يصوغها شاعر مبدع، ويجسدها قلم عاشق.

الاستغراق الذي يسربل المشهد يغريها.. الآن تستطيع أن تمد أناملها فتمس جبينه.. وتتذكر أنها إنما اقتحمت عليه جنته؛ لتذكره

بحاجته إلى الراحة، بعد ساعات طويلة من الانكباب على الصفحات. وتهمّ بمدّ أصابعها الودود إلى جبينه، فتستوقفها تلك المعزوفة الخفية المتناغمة: العينان والورق، والأصابع والقلم، والأنفاس.. وذلك السر الذي يتجسد الآن في سمفونية باهرة، تصنع الجمال للحياة.

راحت تستمع كالمسحورة.. غرقت طويلاً طويلاً.. لكنها لم تستطع تجاوز إرهاقه، وتوجع القلم الخفي بين أصابعه.. لا بد أن تفعل شيئاً لتنتزعه من برزخه ذلك إلى دقائق من الراحة.

تحسست برفق ساعديه الراسيين على سطح المنضدة، سكبت فيهما خيراتها، غمرت أصابعه والورق والقلم.. هذا الإرهاق المقلق، يجب أن يوضع له حد وأتى سعيها أكله.. أغمض عينيه أمام الوهج الساطع، وانتصب بظهره متمطياً، كمن يستيقظ من نوم طويل، ثم رفع رأسه متثاقلاً، ومال بالمقعد إلى الوراء.

احتضنت وجهه باندفاع أحرق، فرفع كفه يتيقها، دون أن يفارق القلم يميناه.. خجلت، وتوارت بظاهر كفه، فعاد إلى وضعه متملماً.. ألقى نظرة على كوب الشاي، ثم نحاه جانباً.. قلب القلم بين أصابعه رأساً على عقب، وراح ينقر على سطح الصفحة بتوتر، ثم وضعه فوقها برفق، ونهض.

شد قامته الرشيقة القوية متطاولاً، وترك نفسه يترنح قليلاً، ثم عقد كفيه بتراح خلف عنقه، وعاد يتمطى.. ألقى نظرة على الصحائف المحيرة.. كل هذا الكلام، ولا تزال شفاه متلاصقتين! وهمست لنفسها: ما أجمل شفاه المبدعين وعيونهم وأيديهم! وكأنما كان لتلك

النجوى سلطان على الروح الشفافة، فسرعان ما تحركت شفاته، وهو يعود للانحناء على الصفحات يقلبها، يتفقدتها، وقد غمر وجهه روح شاعري لم تستطع له وصفاً. إنه ذلك الروح الذي يتلبسه كلما رضي عما أبدع.. عندئذ تحبس أنفاسها مبهورة، وهي تراه يدخل في برزخ العشق، وتعرف أنه الآن في أحسن حالاته.. قد ينطلق الآن فيمشط الشوارع سيراً، وقد ملأه مرح كمرح الأطفال، أو يمضي ليبحث عن الأصدقاء القدامى، أو يتفقد الأماكن الحميمة التي بُعد عهده برؤيتها، وربما تناول قطعة من الحلوى.. كأنه يكافئ نفسه على ما أبدعت.

راحت كعادتها تتابع حركاته وسكناته.. لا يزال منحنيًا على الأوراق يقلبها.. يبحث عن مواضع بأعيانها، والقلم بين أصابعه كأنه واحدة منها.. مرات عدة رفعه إلى شعره.. مرره بين الخصلات الملتوية، فكشف عن نجوم بعيدة تتوامض في ليل الشعر العنيد. كانت تلك الحركة ترافق الاستغراق في التفكير.. أحفظها ذلك.. عاد يفرق.. لا تستبعد أن يمد يده فجأة ليجر الكرسي إلى موضعه، ويغوص فيه ساعات أخرى.. راحت تتململ، ورمته بحزمة لطيفة من شواظها.. أضحكها ما فعلت.. أضغاث أيوب... لكنها لا تريد الوفاء بنذر، إنها تريد أن تنتزعه من هذه الغرفة.. ولا صبر بعد ساعات أربع من الاستغراق والاحتراق.

يعتصر ما بين عينيه بإبهامه وسبابته مرتققًا، مسبلًا جفنيه لحظات، ثم تعود عيناه من جديد تقفزان بين مواضع متفرقة.. سيماء الرضا على قسماته التي اعتادت وأحبت.. إنه آخر المطاف.. الدقائق تمضي، وهو يستعيد بتلذذ تذوق ما أبدع.. ما تزال تخشى أن يعود إلى

العمل.. لجأت إلى القلم، فتطلع إليها مستسلماً عبر الأصابع الرفيعة الحميمة، التي تهصره حتى تكاد تسحقه.. كانت حياته هنا، لكنه كان يشاركها التلهف إلى تلك الفسحة المشتهاة، فهو يتقن قراءة مؤشر الإرهاق في توتر تلك الأصابع المبدعة.

أخيراً هبطت آخر الأوراق على سطح المنضدة، وضحكت وهي تراه يعتدل في وقفته، ويزفر بارتياح: الحمد لله.. ثم يستدير برأسه لاستطلاع الوقت في ساعة الجدار. أرادت أن تبادل القلم الابتسامة، لكنها لم تره، وبحثت عنه، كان قد احتفظ به بين أصابعه، وهو يتجه بخفة ومرح إلى المطبخ.

وابتسمت بحنان.. ها هو يكتشفه.. يضعه برفق فوق الفرن.. ثم .. ها هو ذا يشرب أخيراً كوب الحليب.. وها هو ذا يخرج كما اعتاد، وتبقى هي حيث اعتادت، أما القلم، فلم يعتد له مكاناً إلا بين تلك الأصابع التي سيمكث في انتظارها حتى تعود.



الشجرة

الصباح ما زال جميلاً، كما كان منذ الأزل.. كعهدي به أول مرة،
عندما رضعت ضياءه الألماسي بوريقة فستقية واحدة، يجرح النسيم
خدها الأزغب الطري.. منذ ذلك الصباح، والشمس الطيبة الخيرة ما
تزال تندفع إلى أعماقي دون كلل، فتمنحني الحياة والنماء...

كيف السبيل إلى إفهامها أنني لم أعد أريد ذلك؟ أنتي أريدها أن
تكفّ عن التسلل إلى أعماقي الهرمة المتعبة؟ أن تكف عن الاستمرار
في فتح النوافذ بيني وبين عالم يفتال فيه كل جميل ونبيل؟ أن تدع قلبي
وشأنه، علّ الظلام يحمل إليه شيئاً من راحة، صار يستلبها النور..
أعرف أنني لن أستطيع إيقافها.. وأنه لا يحق لي مقاومة الحياة،
حتى عندما تكون حياتي، فإن سر إعجاز الحياة في كونها تمتلك ولا
تُملك...

لو أن هذه الآلة الرهيبة، التي أزلت بجوار جذعي يومذاك، قطعتني،
كما قطعت جاراتي على امتداد الشارع!.. لو أنني لم أكن الأكبر والأبهي
على تلك الناصية! من ذا الذي يمقت أن يكون الأكبر والأبهي! أنا..
عندما يسرّ بهائي المجرمين، ويعجب اللصوص...

الوجوه والمنازل والطرقات، وكل ما عرفت وأحببت، تغير.. وأنا
باقية كما أنا.. تمر بي الفصول في طريقها المرسوم في دورة الحياة،

تعريني وتكسوني، تثبت لي أغصاناً، وتخرج لي أوراقاً خضراً من سندس
وإستبرق، تكللني بغبارها، وتغسلني بمطرها، وتكونني بشمسها.. وأظل
مسمر في مكاني أختزن غربة روعي بصمت السجين الراسف في
أغلال لا يستطيع لها كسراً، ولا عليها اعتياداً.

لم يقطعوني، فهم يريدون أن أظلمهم.. وأخلع الجمال على المدينة
المسروقة، التي ترفضهم أرضها وسماؤها، ويلعنهم ترابها وشجرها..
الهوية المزورة التي أعطوني إياها عملة زائفة لا غطاء لها.. أما أنا
فكيان آخر.. تعلمت أوراق الحفيف من الأذان في مآذن الأقصى،
مذ كنت وريقتين ترتعشان على غصن نحيل، تسقيهما الماء والمودة
والرحمة، يدان خشنتان دافئتان، وتهمس لهما شفتان يطيبهما عطر
قرآن الفجر المشهود: بسم الله الرحمن الرحيم.

كيف أظلمهم؟! وأنا أعرف أن العهد كان مسؤولاً، وأنا مرتبطة
بعهود، امتصت بموجبها رحيق الحياة من أجساد أولئك الذين
يشاركونني التراب الطهور، يباركون بعيوني أولادهم الذين استشهدوا؛
دفاعاً عن شرعة الله في هذه الأرض، وتنقل إليهم فروعي فجدوري
أخبار أحفادهم، الذين يحيونها ويحيون على صدرها، فيطمئنون في
مراقدهم إلى أن القمح المجبول بأجسادهم، والبرتقال الريان من
دمائهم يتجسد رجالاً مثلهم، عندما كانوا أبناء الشمس والعطاء. وأن
ما أرادوه ما زال يتحقق ويعيش.

أنا أسيرة الحياة والتراب، أتجرع مرغمة كأس العيش حتى الثمالة،
وأتنفس مرارة القيد والإرغام والعجز، أحسها سماً يجري في أوصالي..

أتحرق رغبة في أن أتقلص وأضمر، فأفسح الطريق لسياط الشمس
الغاضبة، لتنهال على كل رأس آثم يحتمي بي...

ولكنها آتية.. تحتضن حقيبتها.. تلوح لطفل على الرصيف المقابل،
قدمها تجتازان الزمن، تخطوان إلى غد نظيف، تواصل صنعه على
مقعد المدرسة القديم.. ستقف الآن في ظلي في انتظار الحافلة ...

رحت أتابع خطواتها، وهي مقبلة إلي، إنها تنظر في ساعة يدها..
ومددت بصري أبحث عن الحافلة من أعلى.. لا تزال بعيدة.. الآن تأوي
إلى جذعي.. ليتها تقترب أكثر.. ها هي ذي تتوقف على بعد خطوتين
مني.. ووجهها الشاب الطفل ينضح توثباً وإصراراً ووضاءة.. تنقل
بصرها من جديد بين ساعة يدها، ونهاية الشارع الطويل، وتتلفت يمنة
ويسرة.. تخرج كراسها بتوتر، وتسند الحقيبة إلى جذعي، ثم تستل من
جيبها قلمًا، وتفتح الكراس...

أمد بصري.. شعرا.. تمحوبذيل القلم، وتبدل كلمة بأخرى..
شاعرتي الصغيرة.. عن ماذا تكتب اليوم؟.. كانت القصيدة السابقة
عن طفل يجمع الحجارة؛ ليقاوم الصهاينة.. واليوم! يا للكلمات!

يا بيتنا المحزون إننا عائدون

فالزيفُ مثلُ الثلجِ

والحقُّ مثلُ الشمسِ

والليلُ لئنَ يكونَ سرمدًا ...

ارتعشت حتى الجذور.. تمنيت أن أنحني لأقبل رأسها الصغير..
وجاءت الحافلة.. لملمت (مرام) أذيال ثوبها وصعدت.. ومن جديد
لمحتها وراء الزجاج، تسوي حجابها.. وتنقح القصيدة ...

وها هو (حاتم)، جاري وحبيبي.. رأسه الشامخ يمنحني شعورًا
بالاعتزاز والعافية، وشعره اللطيف الأمواج يحمل إلي نكهة الغيوم
الطليقة فوق الكرم، وعيناه الدافئتان الحيتان تزرعان الطمأنينة في
أعماقي.. استند بقامته القوية الرشيقة إلى جذعي، وزفر مطلقاً كمًّا
من الانفعال، كمن استراح لتوه من عناء كان يكابده.. أحسست بحنان
طاغ، تمنيت أن أحتضنه وأهمس له: الله معك يا بني ...

المسطرة الهندسية الطويلة تمتد بمحاذاة جسمه، وذراعه تطوق
الكتاب، ويضيء جبينه إرهاب السهر الساحر، الذي شاركته إياه ليلة
أمس. إنه جاري.. أراقبه دائماً، وتبدأ وحشة ليلي عندما يطفئ نور
حجرتة، ويسرق الظلام مني ملامحه الأصيلة النبيلة ...

ترى إلى أين وصل في بحثه عن العمارة في القدس القديمة! .. كم
أخشى أن يثير عليه نبوغه وتفوقه نقمة جنود الظلام! كم أشفق أن تمتد
أيديهم السود إلى طموحه وعرقه، فتحصص ثمارها، وتملاً ذلك القلب
الكبير المتطلع يأساً وألمًا.. وجاءت الحافلة.. وثب حاتم رشيقاً قوياً
مصممًا، ومضى ...

وابتسمت... برغم عجزتي وضيقني ابتسمت.. فقد اكتشفت أنني،
وبرغم أنوفهم، بل بتدبيرهم، ما زلت أسهم في صنع الحياة كما أراها
بارئها على هذه الأرض المباركة.. ما زال في إمكاني أن أكون واحدة

من تلك الأشجار الحية الطيبة الثابتة الأصل الباسقة الفرع، التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وتجد حياتها في كونها ركنًا يأوي إليه من يصنعون جمال الحياة ...

وهزنتي نشوة عميقة، وأنا أترف الروح باستشعار اتحاد من نوع فريد، بيني وبين حاتم ومرام، وكل أبنائي وأحفادي من أهل تلك الأرض، التي بارك الله فيها وحولها.. لقد بقيت هنا بإرادتهم، وبقوا على الرغم منهم.. لا يهم السبب، المهم أننا هنا أنا وهم.. نحن من هذه الأرض، بل هي منا. فإن أراد الصهاينة البقاء فليقتلوا كل من عليها، وليقتلوا كل الأشجار.. وبذلك يقتلون أنفسهم ...

أما نحن فسنولد من جديد، لقد أنبتنا الله من هذه الأرض نباتًا، فإن قضى أن يعيدنا فيها بأيديهم، فسيخرجنا منها إخراجًا، وسيضعنا قلب الأرض الحية، لنخرج بنبضه إلى النور من جديد ...



الصهيل

الفضاء النقي الذي لا حدود له.. لم أفهم كيف اتفق أن يكون، في وقت واحد، مصدر عذابي، وغاية روحي!

الشمس تشرق هناك.. أراها وراء السور المنيع المحيط بي.. وتجلدني بلا هوادة أشواق موجعة إلى السهول الضاحية المحرمة، ويستيقظ في برد وغربة، تترجمهما قشعريرة مفرعة...

حتى متعتي بالذكري بدأت تتحول إلى ألم.. حتى طعم الحلم بدأ يتلاشى شيئاً فشيئاً.. بدلته مذاق الملح والفحم...

عندما أيقنت أنني في الأسر.. خيل إلي أن من العزاء، بل من الحق، أن أقول: أنا من اختار.. لكنني سرعان ما اكتشفت أنني واهمة.. لقد ضللتني اختياري فاندفعت، وخذلني اندفاعي، فاستسلمت.

حملت ورقِي إلى المدينة ولم أتلطف، ولم أحرص على ألا أشعربي أحداً.. وأنكرت المدينة ورقِي، فقد كانت تعتمد عملة أخرى، وأنكرتني، فقد كنت فيها غريبة الوجه واليد واللسان.. كنت فيها من أنباء الغيب التي لم تهتدِ إلي ما وراءها، فبنت على جثتي بنياناً، ولم يقل الذين غلبوا على أمرهم: لتخذن عليهم مسجداً...

إنني غارمة إلى حد قصم الظهر.. ذلك أن من حملت إليه ورقِي كان مدينة لا تعترف به، ولم يعن له شيئاً، وما كان يمكن أن يعني.. ولم يكن يملك لي إلا بنياناً يقيمه فوق جثتي، كما لا أملك له إلا الحيرة

والببلبة، حتى أثر السلامة، فلم يمار في الإمراء ظاهراً، ولم يستفت في منهم أحداً.

لم يخدعني قط، ولعل هذا كان فضيلته الكبرى.. أنا التي رفضت أن أصدقه، عندما لم يخف عني أنه كغيره تماماً من صائدي الخيول، الذين تعج بهم تلك السهول والتلال البهية.. أصررت على أنه مختلف، أنه طراز فريد لم يكتشفه أحد قبلي، إنه جدير بكل ما أنوي أن أمنحه إياه، مما لم ينله غيره من قبل.

حاورني طويلاً.. حاورني بصمت، ومن بعيد.. راح يتربص بي أنى اتجهت في مثابرة وصبر دؤوبين.. لكن محاولاته لإحاطتي بأنشوطته كانت كلها تخفق، ولا أذكر تماماً متى غداً تربصه بي بعضاً من متع السهول، ونشوة الإصباح والأمسية.. رحمت أراقبه، وأترأى له معاينة، فلا يملك إلا متابعتي بنظرات غامضة، يغلب اليأس فيها الأمل، وأنا لاعب الريح في المروج البعيدة ...

بهرني عناده وصبره.. كان له ساعدان قويان، وكتفان مشرفان يوحيان بالشموخ.. بهرتني حتى العشق خطواته الواثقة المصممة، وبراعة يديه في تهيئة الحبال والقائها، وإحكام تداييره في معالجة طرائده.. وقررت: إنه يستحق أن ينتصر علي.. ولم أدر وقتها أنني كنت أقامر، غير مضطرة، بكل شيء.

ودعوته، وأنا أمنع ما أكون عليه، وهو أحرص ما يكون علي، وأيأس ما يكون مني.. ناديته كما لم يعتد أن تناديه فرس، فهب إلي بحباله، تفترسه الدهشة، ويساوره الشك فيما يسمع، ويرى..

لا حاجة بك إلى الحبال يا فارسي.. سأمنحك الشعور بأنني أخضع لك، لأنك أهل لأسري.. لأنك تستحق أن أكون لك أنت دون الصائدين والسهول والفضاء.. وكان هذا، في اعتقادي، أثنى وأعلى ما يمكن أن يقدم لعزيز.

أتيته في إغفاء يقتصها.. انحنيت عليه بود، قررت ألا أجفل متى استفاق، وأن أستسلم إليه كما تحدث الأعجوبة أو المعجزة، فلا بد من أن يفهم أنني أتعمد ذلك وأقصده، وأنتي لست أسيرة تحبسها القيود، وتمسكها الأسوار، ولكن أسيرة يكبلها الحب باختيارها.

كانت أسعد لحظة في حياتي تلك التي رأيت فيها، كوميض البرق، الدهشة المنبهة في عينيه، عندما هبّ صعباً، يستل أنشوطته؛ ليقتذف بها إلى عنقي.. وسربلنا ارتياح المفاجأة، كنت في ضياع.. وكان في حلم.. إنها اللحظة التي كان يمكن أن تغير كل شيء، اللحظة الوحيدة التي كان بإمكانها فيها العودة من حيث أتيت.. اللحظة الأخيرة التي كان لي فيها القرار، والتي سحقتها اغتالها الشلل، أمام روعة اللقاء بعد وصب الشوق، حيث نسيت تماماً ما كان يجب ألا ينسى أبداً...

لم أقاوم حين وضع أنشوطته بعنف حيث أراد.. كنت أمل.. أتوهم.. أنتظر، في يقين ضبابي، أن يفهم.. أن تحدث فجأة المعجزة، ويفهم. لكن تصاعد دهشته بدأ يغرز خنجراً لئيماً حارقاً في صدري.. رحمت أترس في عينيه بلوعة.. أترقب اختفاء تلك الدهشة القاتلة.. أترقب الفهم.. أترقب، وقد طالت النظرة، أن تعقبها تلك الأمنية الغادرة التي كانت تفر إلى المجهول ساخرة متشفية.. أن يمد يديه تحت نظراتي الولهي؛ لينتزع الأنشوطه من عنقي...

واختفت الدهشة أخيراً.. عندما راح يحكم حباله حول عنقي بعناية، وكأن ذلك كل ما يجب عليه عمله.. كأن ما حدث لا بد أن يحدث؛ لأنه نتيجة منطقية لانخداعه الطويل بقدرتي، إحساسه الخاطئ السابق بأنني منبوعة قيمة.

برغم ذلك كله ظلت أحبه.. فليست نبضاتي بهينة علي، وأنا مخلصة لها إلى درجة التضحية. وبات الأمل كل ما أملك.. وكان عنيداً وصلباً، حتى وهو يتفتت تحت ضربات مطرقة الواقع.

إلى قعر زنزانتى كان يصلني دائماً نداء السهول، وكنت أجيبها مهزومة القلب مجلجلة الصهيل.. أنا سعيدة هنا!

كنت أتمنى أن أقول يوماً: أنا قادمة.. لكنني لم أفعل حتى اليوم. شيئاً فشيئاً أيقنت أنني فشلت.. أن فارسي لم يفهم يوماً ما أردت.. أنني لست الآن أكثر من واحدة من تلك الخيول، وليس إلا صائداً يؤكد بأسري براعته ويثبت نجاحه.

توازت المرارة والحب.. بعد أن أرهقني صراعهما الطويل الشرس.. ولم يلاحظ فارسي ذلك، فقد كان منصرفاً إلى إخضاعى وتطويعى وتدريبى، بينما كنت أستमित للفته إلى الفرق بين ما يأخذه منى قسراً، وما يمكن أن أعطيه إياه طوعاً.. كنت أريده أن يفهم أنني أعطي أكثر بكثير مما يمكن أن يؤخذ منى.. ثم اكتشفت أنه لا سبيل إلى ذلك، ليس لأن ما أريد صعب أو غريب، ولكن لأنه لم يكن يعني له شيئاً.

كان يثيره عنادي تماماً كما يثيره عناد الجياد الأخرى، ولم يكن استسلامي إليه في البداية إلا دليلاً على وجوب استسلامي إلى

سوطه وحباله الآن، وراح يمارس عمله كمروض له سمعته التي يحرص عليها، فانتظمت بمقتضى عدالته المشهودة في رتل الجياد التي يملك ويروض، ينالني ما ينالها من لسع السوط، والحبس والقيد، ومكافآت الامتثال والخضوع...

واستقر لدي أنني خرقاء، سعيت بقدمي إلى ذي مدية، وغاليتة في ذبحي، كما لم يفعل أحد، مما أباح له أن يعد ذلك برهاناً على براعته وتفرده. ولم أكن أملك ما أدعي عليه برهاناً، ولم أحفل كثيراً بذلك، فلم يكن يهمني سواه. وكنت أظن أن معرفته للحقيقة تغنيني عن البرهان، وذلك قبل أن أكتشف أنه يتجاهلها عمداً، بل يسعى إلى طمسها والتعفية على آثارها. كأنما هو يخشى أن يسلبه إقرارها شيئاً من مجد، كان قد غنمه بارداً في غفلة من الأعين.

راح يجرجرنني على صخرة مذبحه، شاهرًا مديته، متباهياً بقدرته وقوته، مبرهنًا على براعته وجدارته. وأشهد أنه كان نزيهاً، يقدم الشاهد تلو الشاهد على عدله واستقامته، في معاملة جياده كلها وفق قاعدة واحدة صارمة، لا يجيد عنها، كما تقتضي قوانين المهنة، وكما ينبغي أن يفعل المروض الفاضل.

وكنت مطبوعة منصاعة ما استطعت.. أزجي، حية منكسرة، براهيني غير المعترف بها، على أنني أملك هذا وذاك وذاك، ولم يحدث مرة أن عنت له كنوزي تلك شيئاً.. ووجدتني بين هاويتين مخوفتين: خسران الحب وخسران الذات. ولم يكن البرزخ بينهما يتسع لقدمي معاً، فكنت دائمة التأرجح، وكان لا بد لي من الاختيار، فاخترت الحب.

وهكذا رحمت ألتمس له الأعذار.. ماذا يعني الجواد للمروض أكثر من القوة والطواعية وسلاسة الانقياد، وتوفير متعة الركوب ونشوة الفوز والمنافسة؟ لقد غفر له الحب، ولكن الذات المفجوعة بأخص ما تملك لا تحب.

تعبت.. ولم يكن ثم طريق.. واستسلمت خائرة الروح والجسد.. لا يحق لي أن أطالبه بالتخلي عن أسلوبه، مقابل ما قمت به بنفسي ولنفسني، دون أن يطلبه، أو يعلن استعداده لدفع ثمنه.. ثم إنه في الحقيقة لا يملك ذلك الثمن، وهو لم يطلب أكثر من جواد يروضه. لقد حصلت على ما أردت، فلأدعه يأخذ ما يريد.

وهكذا قررت إلغاء بعدي الثالث، عمقي الموجع، الذي لا يريده، ولا يحفل به، ولا يتفهمه غيري.. هكذا خيل إلي أن بإمكانني تجاهل المدى المزروعة في قلبي، بل تجاهل القلب نفسه، ورحمت أتحنس أناني المقترحة.. وكنت على يقين من أنني لا يمكن أن أكون بلا قلب.

مديته المغروسة في، إذاً، لم تجهز علي، وما كان، ولن يكون لها، أن تفعل، فأنا لا يقتلني إلا ما ينبع من ذاتي، ولا يحييني إلا ما ينبجس منها.. لكنني كنت مذبوحة من دون مديته.. مذبوحة بخيانة اختياري واندفاعي.. بإفلاسي حتى من حق التظلم إلى نفسي، أو إلى أي كان.

عناكب اليأس تشلني بنسيجها اللزج.. هي الأخرى تأسرنني.. كيف أسمح أن تتلاشى تلك الروح الرائعة التي أحب، لتحل محلها روح ذات حدود محصورة بأضلاع، أو محاطة بخط مغلق، أو حبيسة في نقطة لا يمر بها مستقيم، نقطة سائبة في مستوى وهمي لا وجود له أو لها؟! هنا لا أملك أن أختار، فلا قابلية للاختيار بين ما لدي من متغيرات.

الفضاء الذي يمتلكني، الذي يناديني بالقوة نفسها، بالتصميم نفسه، والوجع نفسه منذ غادرته، لم يبقَ منه إلا الحلم السرابي الزلق، أستوطنه بشكل ما، ولا أعرف لهذا التشكل تسمية، ولا أستطيع له تعريفاً.. الحبال والحواجز والجموع التي تحدد بالحلبة، حيث يتجسد انكساري وقهري، تسخر من الفرق الهائل، بين الحقيقة التي تتوهج في صدري وحده، والوقع البليد، الجاثم على إرادتي يخنق الأنفاس في صدرها.

أفكر في القفز إلى هناك؛ لأستعيد نفسي وليعرف الجميع الحقيقة لأعري الحقيقة له ولهم جميعاً، لأثبت أنني لست أسيرة مغتصبة الإرادة، أن رقبتي لم تخلق للقيد، وعيني لم تخلقا للجدران والظلام.. أستطيع ذلك، أجل.. فأنا، كما زلت أذكر، أملك أجنحة خفية.. وما من شيء لا يستطيعه من يقرر دفع الثمن!

ولكن.. من يملك ذلك الثمن الـ ...

أنا؟! أجل إنني أملكه : أنتكر لكل ما صنعت، أمحو من حياتي تلك الخطوات القاتلة، التي طوت ذلك الطريق.. أمحو اختياري الغادر.. أمحو اندفاعي الأعمى، أمحو فارسي الذي لم يستطع أن يفهم، أمحو كل من رأني أستسلم لقبضته المدعية، وحواجزه العبيثة، وسوطه الأرعن، ومديته المزيفة.. هو ذا ثمن الحقيقة!

... مرة أخرى ألبأ إلى ورقى البهرج، عملي الباطلة.. عملي التي لا تدفع نقداً، ولا تحول، ولا يقايض بها. هذه المرة أنا أدرك أنه لا معنى لاملاكها.. أن الحقيقة مدينة أخرى من تلك المدن التي أفتح كفي على أبواب متاجرها بورقي، فتنكره وتنكرني...

السهول البهية القصية التي لا تزال تستحم بمطر الصباح الربيعي،
 وخيوط الشمس المذهبة لا تزال تتبعثر في النثار الألماسي للديم البيض
 الناعمة، وتهوي بعطش وشوق إلى المروج السعيدة، والفضاء واسع
 واسع إلى ما لا نهاية، أنا.. لا جناحين ولا قوائم ولا عينين لي، ولا أملك
 إلا الشوق والهزيمة.

وأطلقت شأواً من الصهيل الذبيح.. واختلطت دموع مرّة حارقة
 بطعام الصباح الفاخر، الذي راح يتجمع في حلقي حفنة وراء حفنة
 كالحجارة...

ومزقت أحشائي ألام غريبة، وأنا مطرقة فوق الطعام، ثم تجمعت
 من حولي أقدام كثيرة ذات أحذية طويلة.. وعبر الطنين الذي يشبه
 زمجرة الرعد في أذني وصدري وأوصالي، تسلت عبارات: إنها
 مجنونة.. مسكينة.. لعلها مريضة...

ومد أسري يده.. وراح يربت رأسي.. بحنان!



قُطَيْطَة

استلقت أمه منهكة قرب مهد أخيه الرضيع، ولم تلبث أن راحت هي الأخرى في سبات عميق. أما هو فما زال ممدداً فوق الأريكة الكبيرة، تتقاذف عيناه الزرقاوان اللامعتان في أرجاء الغرفة الواسعة، التي تلفها رطوبة محببة، في ظهيرات آب اللاهية، وينطق كل ركن فيها بالنظافة الفائقة التي تمتاز بها بيوت البسطاء، في أحياء حلب الشعبية.

توقفت نظراته المنقبة على التلفاز المغطى، وعبر خياله النبض، راح يتوأنب أبطال قرية التوت، وكعبول، وريمي... ثم طالعت صورة جده الكبيرة على الجدار.. وتحلّب لعبابه لمرأى جيوبه المملأى بالحلوى والنفاخات الملونة.. وأخيراً استقرت عيناه على فرجة الباب المفضي إلى درج السطح، وقد تسلل منها وهج طيف الشمس، التي تنسكب على كل شيء في الخارج.. وفجأة رآها.. قطيطة شقراء، مدورة الوجه والعينين، تحشر جسمها الضئيل بين المصراعين، وتنساب إلى الداخل بصمت وأمان، وكأنها لا تراه...

تحفز كل شيء فيه.. وهتف أخيراً، بصوت يكاد يسمع، برغم حرصه على إغفاء أمه، التي هي الآن أثمن ما لديه: قطة...!

واعتدل فوق الأريكة، مصوباً نظرات متلاثلة حذرة إلى أمه النائمة. ثم هبط الأرض باحتراس، بقدميه البضتين العاريتين، وجعل يتقدم

نحوها هاشاً، تكاد ترثرة ضحكته العريضة ترن، في صمت وسكون القيلولة، وراح يدعوها إليه بإيماءات عفوية من كلتا يديه، ومن رأسه، ومن عينيه.

انكشيت القטיפطة قليلاً، فتوقف مشفقاً أن تنفر، وطفق يخالس أمه نظرات خاطفة لا تكاد تخلو من خوف.. أرخت الزائرة عضلاتها مطمئنة، كأنما أنس ضعفها بسنواته الخمس الغضة، لكنها لم تتقدم خطوة واحدة...

فجأة تذكر شيئاً.. عاد إلى سرير أخيه، وتطاول حذرًا يستلّ زجاجة الحليب التي لا تزال دافئة.. رفعها أمام عينيه وهمس لنفسه، وهو يتنفس بارتياح: ... فيها... واستدار إلى القטיפطة، يلوح لها بالزجاجة، وأراحه أن لمس منها المزيد من الاطمئنان.

هبط الأرض، في مكانه، ثانيًا ركبتيه، وراح ينفذ الزجاجة بقوة فوق البلاط المصقول، فتناثرت منها بضع قطرات.. لمعت عيناه بفرح، وهو ينقلهما بين قطراته الثمينة، وأمّه النائمة، والتفت إلى القטיפطة مغتبطاً...

تعالى.. خذي حليباً. لكنها كانت منصرفة عنه، تنظر في اتجاه آخر.. فانتصب وهو يحس بشيء من الخيبة والغیظ، وأخذ ينقل قدميه ببطء وحذر، باتجاه الزائرة الغبية، يدعوها بكلتا يديه، هامساً: بس، بس... بس، بس... حليب، حليب...

كان محمد، في دبيبه اللطيف، يحاذر شيئين خطيرين: يقظة أمه، وانفلات القטיפطة، هاربة من حيث أتت. ولكن أياً من ذينك لم يقع..

كل ما في الأمر، أن القطيطة استقبلت الزحف الحلو بشيء من التوجس والانكماش، ولم تفكر قط، في الباب الذي دخلت منه قبل لحظات...

أخيراً وصل إليها.. انحنى يلمس رأسها بحذر وانبهار.. وأزهرت ابتسامته، واتسعت، وهو يراها تغمض عينيها باستسلام.. وهكذا نسي أمه، وقطرات الحليب، واقترب منها أكثر، وأحاط عنقها الناعم بكفيه، محاولاً جرّها إليه بلطف: تعالي.. تعالي...

أبدت القطيطة شيئاً من المقاومة، فعدل عن جرّها، وعاد يقترب مجرباً أن يحتضنها بذراعيه.. وأخيراً حملها.. ضمها إلى صدره.. كان يتخيلها ثقيلة الوزن كأخيه، لكنه فوجئ بخفتها، فاستوى بها واقفاً يعصف به فرح وزهو، وتثرثر فوق شفثيه ضحكة خافتة تكاد تقفز من ابتسامته العريضة، وطفت على وجهه البراق نشوة النجاح بالانتصار على هذا المخلوق الناعم المشتهى.

راح يحدق في جسدها اللدن المستسلم إلى ساعديه، ويتحسس بذقنه شعرها المغربي متلذذاً.. ورفعت وجهها إليه، ثم طرفت بعينيها العسليتين المستسلمتين، فاستخفه فرح وحبور سال لهما لعابه.. أحكم ساعديه حول جسدها بحرص من يحمل كنزاً نفيساً، واتجه إلى الباب، يدفعه برفق بقدمه العارية، حتى كاد يغيب الشق بين مصراعيه...

عاد يتفرس في عينيها المتحبتبتين، وقد أمتعته ألفة بريئة ودفء حميم تجيد الطفولة التنعم بهما.. وفجأة تذكر: تريدان حليباً؟

وبحث بنظره عن موقع بقعة الحليب، فهدته إليه الزجاجة، فاستدار بها، وهو يتمتم بحنان، مستحضراً صوت أمه: جوعانة؟.. أنت جوعانة؟

وانحنى يضعها على الأرض، في مواجهة قطرات الحليب: كلي..
كلي ...

مشت القטיפطة فور ملامسة قوائمها الأرض، فعاد يمسك بظهرها،
ويدير جسمها النحيل إلى حيث قطرات الحليب التي تكاد تجف: أوه..
هذه، هذه.. ولكنها لم تهتد إليها، إلا بعد أن كاد يلصق فمها بها. وفي
لمح البصر اختفت بقعة الحليب! وهزه طرب قفز له، وانفلتت ضحكة
جدلى من بين شفثيه، وهو يغمغم كالمسحور: يا الله.. انتظري..
انتظري هنا.. لا تقتربي من أمي.

مشى خطوتين من دونها، ثم عاد كمن فطن إلى شيء.. وانحنى
يحملها: تعالي.. تأكلين سمسامية؟

ودخل بها غرفة جدي المشرعة الباب.. أنسته سعادته بها
الامتعاض الذي يحسه كلما دخل غرفة جديه المسافرين.. ها هي ذي
علبة الحلوى المعدنية المدورة في تناوله كالمعتاد.. رفع الغطاء غير
المحكم بيد واحدة، وكشف الغطاء الورقي الأبيض الذي تحرص جدتي
على ستر سطح الحلوى به، ثم التقط قطعة شقراء لماعة، ولم يستطع
مقاومة إغراء القطر الشفاف المتبلور على سطحها، فلعقها بشهية
مرات عدة، ثم قربها من فم القطعة.. هشت لها، وتشممتها، ثم طرفت
بعينها، وأشاحت لا مبالية. قال غير شديد الأسف: لذيدة.. انتظري
كيف أكلها...

ورفع رأسه فاتحاً فاه، وألقى بالقطعة فيه، وراح يمضغها ويتمطق
هازاً رأسه، مبالغاً في إظهار تليذذه، كما لو كان يغيظها: أرايت؟

غادر الغرفة جذلان، مستمتعاً بتجوله بها، متحرراً من خطر أمه، التي لا تسمح بوجود قطة في البيت، وقد سبق أن طردت أكثر من واحدة حاول اقتناءها... فجأة مات، فأجفل، وتراخت يداها عنها، فهبطت الأرض بخفة.. وماءت ثانية، وراحت تمشى ببلادة.. تبعها محمد فزعاً، يضغط بسبابته على شفثيه الورديتين المضمومتين: هس هس.. الآن تستيقظ، وتلقي بك خارجاً ...

وأضاف يشاغلها عن المواء: تأكلين خبزاً؟

ولم ينتظر جوابها، بل سارع إلى المطبخ، وهو يدعوها بحركات يديه مغرياً إياها باللحاق به، في محاولة مستميتة لإبعادها عن مضجع أمه.. كان مطمئناً إلى أن قدميه العاريتين، وقوائم القطة المزغبة، لن تحدث صوتاً يوقظها.. وطار فرحاً عندما راحت تتواثب خلفه.

كانت بقايا طعام الغداء لا تزال في أوانيها، وجعلت القطة تتمسح بساقيه، مشرئبة الرأس والذيل.. أحس أنها ستموء في أي لحظة كانت، فعاجلها بقطعة من الخبز: هذا خبز فيه «كباب» ...

ماتت نصف موءة خافتة، واندفعت تتشمم ما في يده من همكة، فاضطرب، وعاجلها بإلقاء قطعة الخبز أرضاً، فهرعت تلتهمها بنهم.. جلس القرفصاء، شاخصاً إليها ببصره، لاهياً عن كل شيء... راح يحاكي حركات رأسها، وفكيها بتجاوب غريزي.. ثم زادها قطعة ثانية وثالثة، حتى لاحظ عزوفها عما يقدمه إليها.

حملها بين يديه، ونهض بها متثاقلاً، ثم رفعها إلى صدره، وهمس: قولي: الحمد لله رب العالمين.. وبدا له أنها قالت، فأضاف متلبساً

سحنة جده، عندما يقول بعد الطعام، متمعداً أن يسمعه محمد: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وجعلنا مسلمين.. وأضاف كما يضيف جده: أعيدي ...

غادر «محمد» المطبخ بحمله الثمين نشوان، لا تسعه الدنيا، وصوب نظرات متفحصة إلى أمه، ولما اطمأن إلى أنها لا تزال في سباتها، تقدم حذراً من الأريكة، التي كان مستلقياً عليها.. وضع القטיפطة أولاً، ثم تبعها بأقل قدر ممكن من الجلبة. لكن الأريكة أصدرت صريراً لم يكن يتوقعه، فلف ذراعيه العاريتين بحركة عفوية حول القטיפطة، وانكمش في مكانه متظاهراً بالنوم، وقد جعل ظهره إلى أمه.

انبعث صوت الأم متشككاً خفيضاً: محمد.. لم تتم بعد؟!

فتماوت في ضجعته.. وسال الصمت اللذيذ، فغمر الغرفة كلها.. وراح محمد يتأرجح على صفحة ذلك الصمت الملساء المترامية، وقد احتضن القטיפطة الشقراء.. ولم تكرر الأم سؤالها، أما محمد فظل يتأرجح بالقטיפطة رويداً رويداً، وهو بيتسم بسعادة...

فتحت الأم عينيها، وألقت نظرة ملهوفة على ولديها.. كانا لا يزالان نائمين.. أي حظ سعيد هبط عليها اليوم!

وتحولت إلى الأريكة، حيث يرقد محمد، وغلبتها ابتسامة.. عجباً! كيف أتاح لها اليوم هذا القدر من النوم! ذلك العفريت الصغير! ها هو ذا يغفو بسكينة، تعلق وجهه سمات الرضا، وقد عقد ذراعيه كمن يحتضن عزيزاً...

لمست جبهته بلطف، تمسح حبات دقيقة من العرق، كانت تتلامع بين خصلات شعره المذهبة المتهدلة على جبينه. وألقت نظرة إلى الباب.. إنه مفتوح، وجسد الصبي مبلل بالعرق، ولن يكون حسناً أن تطوله نسيمات الغروب الوشيك.. وسارعت بالقاء دثار خفيف على خاصرته...

ما إن ولج الأب باب الدار بعد يوم طويل من العمل، حتى هرع إليه محمد، والدموع لا تزال عالقة بأهدابه، وانخرط، بلا مقدمات، في بكاء مفاجئ، لم يلبث أن غدا نشيجاً ملتاعاً.. ووسط دهشة الأب وتساؤله، راح الصغير يشرق بالكلمات: ماما رمت القطة...

قطب الأب مستغرباً، متظاهراً بالاهتمام، وهو يقبل الصغير متلطفًا، ويكفكف دموعه موسياً: أي قطة؟!

- قطة جاءت.. أطعمتها ...

وراح يعول، مطلقاً العنان لدموعه وشهقاته. وهدده الأب متعاطفًا: من أين جاءت؟

- من الباب ...

وأراد الأب أن يتأكد أن الأمر حلم، فقال مترفقًا: ماذا قالت لك؟ رفق محمد أباه باستنكار، وصاح حنقًا: ... القطة لا تتكلم ...

صمت الأب مفحمًا، وفكر ثواني، ثم عاد يقول في محاولة لجمع مزيد من التفاصيل التي قد تعين على اكتشاف الحقيقة: ماذا أطعمتها؟

- حليياً وخبزاً .

وتدخلت الأم بقلق: أي حليب.. لم يتبقَّ لدينا شيء منه .

عاد محمد إلى البكاء بمرارة، وراح يكرر بعناد وتحداً: أطعمتها حليياً وخبزاً.. حليياً وخبزاً ...

نظر الأب من فوق رأس الصغير إلى زوجته، متسائلاً! وكان واضحاً أنها في مأزق حقيقي.. قالت، متأملة الصغير بقلق: ... والله لا أعرف...

وأضافت متعجبة: كأنه حلم بقطة.. هذه المرة الأولى التي ينام فيها نوماً عميقاً بعد الظهر، ولم أكد أفرح بذلك حتى استيقظ، وراح ينقب في كل زاوية من البيت وهو يبكي، ثم راح يطالبني بقطة. وعبثاً حاولت أن أفهم ما وراء تصرفه ذلك ...

كان محمد يصوب نحو أمه نظرات منكرة مكذبة، وقد خفض من حدة عويله؛ ليتسنى له سماع كلامها. واستفهم الأب سرّاً: أهذا صحيح؟

أجابت الأم حيرى: أجل والله.. وأنا في دهشة، وحيرة ...

مسح محمد عينيه بظاهر يده، ونظر إلى أمه بغيظ وتحداً: سترين.. لن أنام بعد الظهر أبداً ...



ذو العينين السوداوين

توسعة الحرم المكي بحر من مرمر براق، يتوامض على صفحته ذهب شمس الظهيرة الخجول، متخللاً رذاذ الربيع الألماسي الذي يغشي البناء الجليل، والجبال الرمادية، وهي تحتضن البيت كما يحتضن الصدر القلب.. وجزر صغيرة بيض وسود من المصلين تتناثر هنا وهنا، تتابع فريضة الظهر وراء إمام الحرم.

هبطت السلم المرمرى محتدمة، أخرج صغيري المتعثر الخطى، في محاولة لتعويض الدقائق التي أنفقتها في بعض شأنه، فأخرتني، حتى فاتني بعض من الصلاة...

أعاد المشهد المؤتلق إلى النفس سكينتها، وإلى الصدر إحدى أعظم منن الله، التي تملأ الروح والجسد نشوة وشكراً، منة النفس الطويل العميق، الذي يعيد إلي مذاق متعة الحياة، بعد ضيق أو شدة، فأستقبل أموري، وكأنني ولدت لحظتها...

دخلنا الحرم، والمصلون في القعود الأول، فلبثت، منتظرة قيامهم إلى الركعة الثالثة، أختزن في الروح أنفاس الخلد، التي تتخافق من حولي نعيماً لا يدرك كنهه، ولا تُحد روعته، وأهين النفس المضطربة لسكينة الاتصال بالله، والركون إليه.

اتخذت لي مكاناً، وأجلست الصغير إلى جوارى.. وفي لحظة خاطفة، وجدته في لجة عينين طفلتين، حجباً ليلهما الحي

المترع بالأسرار والبوح الضياء المانع، والذرا المغسولة بالمطر والشمس، وحزم المصلين المتناثرة على البلاط المتلألئ... كل شيء اختلط، كل المرثيات ذابت في تلك الدنيا من الدهشة والافتتان، والرغبة المشبوبة، المكبوحة بحواجز الاستحالة والحرمان، الرغبة المقهورة بصمت، الموجعة ببراءتها وطهرها، ونقاء الروح المتلهفة المتوارية خلفها. لم يكن ثمة ألم أو حسرة، إن هي إلا أسماء سمينها، أما الطفل فلا تعرفها روحه الملائكية.

استلّ الصبي الأسمر عينيه الآسرتين من عينيّ على عجل، غير مكترث بنظراتي المأخوذة، وصبهما بشغف فاضح على يدي ولدي، اللتين تحتضنان دلوّاً بلاستيكية لطيفة، تشف عن مجسمات زاهية، يتشكل من مجموعها قطار ملون طريف.

دفقة هائلة من فوران الشعور راحت تعصف بي، ووجدتني كمن يقف في فوهة إعصار.. نازعتني النفس إلى الانحناء على الصغير... إلى ابتكار ما يذيب تلك النظرة التي راحت تسوقني بلا مقدمات، وتصهرني حتى الاختناق... تمزقت لحظة بينها وبين تكبيرة الإمام، ثم اندفعت بلهفة لا سلطان لي عليه إلى عمق الصلاة... كنت كالمنومة فوق صفحة البحر، مسلوبة الاختيار والفعل. ولم أفلح في انتزاع شطر روحي، كما انتزعت عيني، من عيني الصغير الأسمر النحيل الموجعتين.

جلس طفلي صامتاً، وراح يجر جر قطاره بتباه، بين ساقيه المتباعدتين.. فقد لاحظ اهتمام الصبي المنتصب المواجه له، وهو

يلتصق بجانب أمه متشبثاً بثوبها، كما لو أنه يعول على قبضته وحدها في الاحتفاظ بأمه، أما ما تبقى من كيانه، فقد كرسه تماماً لتلك المتعة الكبرى...

وكانت الأم منهمكة بتأدية الصلاة مع الجموع، غير آبهة بالجسد الضئيل المتأرجح مع كل حركة من حركاتها، ذاهلاً عن كل شيء، إلا عن قطار صغير ملون، ليس له، تلهو به كفان صغيرتان مثل كفيه تماماً...

ظل المشهد يحاصرني بالحاح، وأنا أجاهد للتخلص من أحاييله البارعة، والتملص من سطوته المحكمة، فأغلبه تارة ويغلبني تارات، حتى قررت أخيراً أن أغمض عيني، لیتسنی لي الانصراف إلى الصلاة.

أما طفلي، فقد أراضاه افتتان الغريب الصغير بما في يديه، فراح يبتكر الحركات والأصوات، ليبقي على هذا الإعجاب الذي يمتعه. وأما ذو العينين السوداوين، فقد استسلم بكليته إلى القطار المرح، فلم يعد يربطه بالدنيا سوى تلك الحفنة، التي تتشبث بها قبضته الدقيقة السمراء، من ساري أمه الرث.

كان جسده الضئيل يتموج مع كل حركة تأتيتها الأم، فيترنج ذات اليمين، وذات الشمال، وهو منصرف إلى تلك المتعة الكبرى، بعد أن اطمأن إلى إحكام قبضته على الحفنة الثمينة التي تعني له الأمان.. ولعلها كانت الشيء الوحيد الذي يهيمه، أكثر من القطار الصغير.

دون أن يكون لي الخيار، وعلى نحو لم يعد بإمكانني تذكره، وبرغم المحاولات التي لم تقتر لأبقى مع صلاتي، ارتحلت مع ذي العينين

السوداوين في القطار المسحور.. راحت أمواج من اليقظة والحلم تتقاذفني بلا هوادة.. الصلة الخالصة بالمطلق، الذي تشدني إليه الآيات الخاشعات البيئات، وعالم الملائكة، الذي تذبجني على عتباته تلك الرغبة الشهيدة المجدلة في أغوار العينين السوداوين...

كنت أراها برغم عيني المغمضتين.. كانتا تخوناني.. يرغمهما انبهاري، ويفتال إرادتهما ذلك الشعور الذي أقام وجداني وأقعده، دون أن أستطيع له تسمية.. كنت مستلبة تماماً أمام عالم الأحاسيس الذي تضح به العينان الناطقتان.. لم أستطع إلا أن ألبى دعوتهما إلى تلك الرحلة المسحورة في القطار العجيب.. رأيت ذا العينين السوداوين، وهو يستقله، وراقبته وهو يطل من النافذة.. يترنح ضاحكاً في المقطورة البرتقالية.. يدير بقوة وبراعة عجلة القيادة.. رأيته يحتضن القطار.. ينبطح أرضاً في مواجهته، ويعطيه إشارة الانطلاق.. سمعته يصفر؛ ليخلع عليه صفة القطار الحقيقي.. ولا أدري من منا كان الأصغر لحظنتئذ!

كنت أمام حالة فريدة من الشغف والذوبان والاستغراق، استحضرت شيئاً من متعة الاكتفاء، بل الفنى الذي يملؤني، عندما يماهيني معنى أو فكرة، ثم يستجيب لها القلم، فينعم لي يوصل قلوب أحيا بها.. إنها المتعة التي أحلم باشتيارها في حالتها المثالية، بمراقبة عبقرى في لحظات الإبداع المهيبة.. وما زال ذو العينين السوداوين، حتى يومي هذا، الحالة الأقرب إلى المثال المنشود.

شغلني ذو العينين السوداوين عن خشوعي أكثر من مرة، فكان لا بد لي من الحرص على إغماضتي، كان لا تأسرني عيناه، كما يأسرهما

القطار.. ولا أدري أين من ساحة الشعور وجدت مكاناً لقرارٍ كالوميض:
سيكون هذا القطار لذى العينين السوداوين...

فرغ المصلون من الفريضة، ونهضت لإتمام ما فاتني.. وعبر
واحدة من انفراجات الجفون المسروقة، رأيت الأم تهب عجلي، وتنتثر
الصبي المستسلم، وتجره منطلقه به، وهو يتلفت إلى القطار...

وطار قلبي وراءه... راحت المفاجأة والدهشة والرجاء تعصف بي،
وأنا عاجزة مشتتة الفكر والقلب والروح.. مزقتني الصلاة والعيان
السوداوان، وأحسست بقلبي ينخلع على آثار خطوات الصبي المتعثرة،
وهو يجر إلى المجهول تحت سمعي وبصري، وبرغم أنف رغبتني
اللاهبة، التي تعدل رغبتة أو تزيد عليها.. لقد منحته القطار الذي
اشتهدى، دون أن أحظى بسعادة تلك اللحظة التي كان كلانا يتلهف
عليها، سعادة امتلاك ذي العينين السوداوين القطار المشتهدى.

ضاع ذو العينين السوداوين في الحرم الذي لم أره واسعاً، كما
رأيت في ذلك اليوم.. ضاع وأنا في الصلاة.. قد أكون يوماً ناديتة..
فقد هتف صوت ضارع في أعماقي: قف قليلاً.. قف ريثما أنتهي من
صلاتي.. ولكنه راح يبتعد أكثر فأكثر.. وذاب في لحظة ظالمة.. في
نقطة لا أذكرها، فقد ذابت هي الأخرى...

أتممت صلاتي، وأنا أعالج شعوراً يشبه حالة اليقظة الغادرة من
حلم. كنت مفلسة عاجزة، مستسلمة إلى إجهاض شعوري الذي ترك في
فضاء الروح والفكر هوة غريبة الشكل واللون والمعنى. وكان صغيري
إلى جانبي، يلهو بقطار ذي العينين السوداوين...

كان ذلك منذ سبع سنين.. وما زالت بقايا من قطار ذي العينين السوداوين بين لعب ولدي.. وما زالت تلك النظرات العطشى المأخوذة تستأثر بجوارحي، كلما وقع بصري على واحدة من القطع الملونة الزاهية، التي أردتها يوماً أن تكون من مصادر السعادة النادرة لي ولطفل لا أعرف منه سوى عينين، عشت فيهما ثواني، كانت أعلى من كثير من ساعات العمر وأيامه..

وما زالت رغبتي الموءودة تغتلي في صدري، وتلوب باحثة عن رغبة ذي العينين السوداوين، لتعتق الرغبتان، وتبقيا في قلب الذاكرة، خسراً لا يد لأني منا فيه.

ولبثت زماناً، أتحرى تلك النظرات، في رحاب الحرم، وفي طرقات مكة وأسواقها، كلما لاح لي صبي في الرابعة، أسمر الوجه، سبط الشعر حالكه، يستوطن عينيه ليل غابات أفريقيا الوسطى، حيث لا يجد الصغار الكثير من القطارات الملونة المرححة.. لكنني لم أرها قط ...

أيها العينان اللتان لن أنساها.. ما كانت رغبتكما بأشد من حسرتي.. وكم أتمنى أن تكون الأيام قد أتاحت لكما من المتع ما يفنيكما عن قطاري الصغير الذي لم أستطع في ذلك اليوم أن أسعدكما بامتلاكه ...



خانتك عينك

كان يشعر بأنه يملك ما لا يملكه غيره، وإذا كان أكثر تواضعاً، لا يملكه الكثيرون.. ليست موهبته وحدها هي ما يميزه.. إنه تلك الروح النقية العاشقة للخير، الشغوف بالجمال.. إنه فكره الحر كأبداع ما تكون الحرية، المنطلق كأروع ما يكون الانطلاق.. إنها طريقته الفريدة في الحياة، تلك الطريقة الجريئة، التي تدفع بسخاء لا حدود له كل ما تملك ثمناً لما تؤمن به وتسعى إليه...

إحساسه بتفوقه لا سلطان له عليه، لكنه مهيمن بإحكام على نواذعه، وقد وعى خطر الغرور المتربص به، فأتخذ لذلك أهبتة، وأعد له أسلحته السرية، فلم يكتشف أي من المحيطين به كنه تلك الإطراقة المفاجئة، التي يعقبها اشترئاب خاشع، مشفوع بعبارة: الحمد لله.. الحمد لله.. يرددها كمن يتلذذ باستكشاف عوالم لا نهاية لها من الجمال، وآفاق لا حدود لها من الخير، الذي يمتعته ويرضيه، دون أن يسمح للغرور والكبر بتسميمه وإفساده.

كان يملك قدرة هائلة على العمل الدؤوب، فقد عود نفسه تجاهل صوت التعب مهما علا وجلجل، إذا كان يقوم بعمله، ولم يتح للنجاح الذي نال منه الكثير أن يدير رأسه، ويزين له الغرور، بل كان يتكلم عنه بتواضع أصيل فاتن، واقتضاب يزيد من سحر إنجازاته وقيمتها...

غاية سامية كانت تأسره، وتوجه دقة تفكيره وسلوكه، أن يظل ذلك الشاب الذي يظله الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، لقد نشأ في طاعة الله وكنفه، ولم تطب نفسه إلا بمواصلة السير في تلك الطريق النظيفة الصعبة. وعلى الرغم من خطورة ميدانه الذي اختار، والحاح خياله الفريد في الإخلاص لدفائن نفسه المكنونة، وبسط خلجاتها، وترجمة نبضها بصدق وصراحة، فقد نجح في تطويع نوازعه لدواعي الخير والبر، ببراعة وإخلاص ومتابرة. فقد كان قراؤه نخبة من عليا الناس خلقاً وثقافة وذوقاً.

وشغلته دروب الكلمة المحاصرة الوعرة عن حياته وحاجاته، فقد استهلكت هموم الناس والأمة والوطن، وشؤون القلم وشجونته، في ذلك الزمان القاسي، رغائبه، وغيبته الكثير من آماله.. وكان كل من حوله يتساءل عن المرأة التي يمكن أن تحظى بقلب رجل مثله، المرأة التي تستطيع النفوذ إلى تلك الأعماق المرهقة المرهقة.. وكانوا يرسمون لها صوراً تترجم تقديرهم لما يليق به.. أما هو فكان شديد التكتم، طويل الصمت فيما يتعلق بهذا الأمر، حتى مع أقرب الناس منه، وأكثرهم ملازمة له.

وكان لا بد لهذا القلب أن يخضع، فمن أجل أمثاله كان الخفقان والحب.. وتعلق بها.. تاقت نفسه إلى الاطمئنان في جنة صغيرة يجمع فيها ما تركته الحياة المقتصدة من بقايا الفرح.. رأى فيها طفولة وعفوية وتلقائية، وكانت ملامحها تشف عن نفس لا تعرف من الحياة إلا الضياء، وجد فيها واحة من رمضاء الحياة، وملاذاً وحصناً من أخطار قد تترصد صفاء ونقاءه، في دروب عمله الخطيرة، واقترب

منها.. جنَّ فرحاً بالنجم الذي سقط في حجرها على غير انتظار، وبهرته فرحتها واندفاعها وحماستها، وألهبت خياله، وحفزته على العطاء، فأعطاها كل ما يملك، وكان ثروة، وكان كنزاً.. أغدق عليها كل دفته وحبه بلا حساب، كما يغدق على فكرة يؤمن بها، أو نبضة تختلج في عمق روحه. وكان في ظمأ إلى العطاء الواقعي الذي لم يعرفه إلا مع قلمه، وكان لسان حاله يقول: هنا فقط أطلق العنان لشعوري، كما أطلقه لها عندما أكون مع قلمي وأوراقتي...

أما هي فكان أكثر ما يستثيرها حسد لداثها، وتمنيهن أن يكنَّ في مكانها، أن يحظين برجل فذٍّ مثله.. وتملكتها رغبة جامحة في فعل أي شيء للحفاظ على ذلك الكنز النفيس، وهدتها فطرة الأنثى فيها، والصدق والعفوية فيه، إلى كيفية إحرازه وإرضائه، إلى بذل الغالي والثمين من دون حساب؛ ليبقى لها.

أعطته الكثير مما رآته كفيلاً بأسره.. وظل ينتظر أن تعطيه ما يريد، ولم يستعجلها، فقد كان يعرف أن ما يريده، على بساطته، لا تجيد الكثيرات إعطاءه، وأنها لا بد أن تعرفه تماماً، لتعطيه ما يبحث عنه ويسعده...

وراح يعرفها نفسه.. وسرعان ما اكتشف أنها لا تحفل بذلك.. كأنما كان يكفيها منه ما تعرفه، ولا يعينها أن تزيد عليه.. وحرص على تقديم نفسه التي لا تعرفها، فقد كان واثقاً بأن ذلك سيسعدها أكثر.. ولمست حرصه ذاك، فخضعت إلى رغبته؛ إرضاء له، وراحت تستمع إليه متصبرة، في انتظار دورها؛ لتعطيه ما تريد هي، غير ملتفتة إلى

ما يحتاج وما يريد.. وكان أكبر بكثير من أن تستوعب احتياجاته، أو تهتدي إليها.. قد تكون قدمت إليه أكثر منها، أو أثمن، أو ما يفوقها كلفة.. لكنها لم تكن قط ما يريد.

شيئاً فشيئاً راحت الأمانى والأحلام تهزل وتموت تباغاً. وكان في البداية يحتمل مصابه فيها متجملاً، مؤملاً أن يغنيه ما يأخذ عما يريد، ولكنه، برغم أنف رجائه، أخذ يقتنع بأن ما يطرح عليه من البدائل قد يسعد أي رجل غيره.. واستيقظت في حلقه غُصّة كبيرة.. ونظر إلى الحبيبة، فألفاها تهرول مبتعدة عن موقع القلم منه، بنفس السرعة التي يحلم أن تدنو بها من ذلك الموقع.. أن تدنو فحسب.. فهو لم يحلم قط بالمستحيل، وقد أدرك منذ زمان بعيد أن من المستحيل أن يبلغ أحد موضع حبه الأول.

وجثم على صدره همّ ثقيل، وامتلات نفسه المرهفة ألماً من نوع جديد.. أما وجدت فيه ما يخرجها عن حدود النموذج الذي وضعت قواعد السعادة وفقاً له! وتململ حتى الخوف.. فالنفور.. إنه يرفض بعنف أن تطبق عليه قواعد يؤمن بها الجميع إلا إياه، واستيقظت ذاته، في دفاع عن تميزها الفطري، الذي لم يكن يملك أن يفرض فيه، إذا لم يسيء إلى أحد...

ألم تجد فيه أكثر مما وجدت! وجواهره الثمينة الثمينة، أين هي منها! إنها كل ما يعنيه لنفسه، إنها ما لن تجده عند سواه.. كل ما كررته على مسامعه عن تميزه واختلافه، وخصوصية معاملته، لا يعدو كونه يتمتع بالشهرة، وهذا يعني لها كل ما لا يعنيه أو يهيمه.. إنه يعني

الأضواء والرفاهة والأسفار والتباهي! أما الروح التي وراء ذلك، فهي خاصة به، ولا تملك لها شيئاً، بل.. لا تهمها، ولا مكان لها بين مزايا ارتباطها به...

هل خدعها؟ هذا دأبه.. إنه يبحث عن الخطأ في نفسه قبل البحث عنه لدى الآخرين.. مسؤوليته أن يفهمها، أن من ترتبط به لن يكون لهذه الأمنيات في حياتها حظ يذكر، وقد لا يكون لها أي حظ...

وداهمه الحرص على دفء الحب بعد ما عصف به من رياح الفكر، وحصر همه في وسيلة رفيقة حنون، توصل إليها ما يريد، فهي أغلى من أن يتركها تعاني لاكتشاف ما يقدر على تقديمه إليها بلا تعب...

جمع شجاعته، وحشد كل ما يتمتع به من قدرة الأديب الفنان على الوصول إلى العقول والقلوب: الشهرة التي يتمتع بها قلبي، يا حبيبتي، لا أتطفل عليها أبداً، ولا أسمح لنفسي أن أجني من ورائها أي مكاسب.. أما الأضواء التي تسلط على أعمالي، فلا أسمح لها أن تصل إلى خصوصيتي، إلا على أضيق النطق التي تقتضيها الضرورة.. وإذا كان لا يحق لي، وأنا أنشر خطرات فكري وخلصات روحي، أن أدعي أن حياتي ملك خالص لي، فأنا أقدمها كتاباً منشوراً، يقرؤه كلُّ كما يريد، ولا أقرؤه أنا لأحد.. وأما الرفاهة التي تتصورين، فلا يملكها أحد مبدع مخلص لنفسه وابداعه.. وأما المكانة الاجتماعية فقرائي الذين يقدرون كلمتي أبعد ما يكونون عن الطبقة المخملية المسطحة التي لا أتعرف بها، والتي تتبوأ قمة الهرم الاجتماعي الوهمي.. وأما التباهي فهو ملك لك، إن اقتنعت بي كما أنا، فملأت عليك نفسك...

استمعت إليه بنظراتها الطفلة التي يحب، وحيرته تلك المهاوي من الفراغ التي تراءت له من ورائها، وخادع نفسه مكابراً.. فعلامات المفاجأة قد تختلط، ولا سيما في عينين طفلتين كعينيها، بعلامات الاستنكار أو الخيبة...

أرعبته الكلمات، لكنه أجم الرعب، وراح يجاهد في تضمين لهجته من الحنان ما يطمئنها إلى أن ما يقوله لا يمس حبه الكبير لها، وهو ما يفترض أنه الأهم في الأمر.. وشعر بأنه قد نجح في تقديم نفسه على حقيقتها، من دون خداع أو تمويه.. وبخوف مبهم الماهية والأسباب، انتقل إلى حديث آخر.. أراد أن يعطيها فرصة للتفكير فيما قال، واستجابت بصمت، وانتهى اللقاء، كما ينتهي كل لقاء بينهما، بالاتفاق على موعد جديد...

ولم يرها بعد.. وقال له صاحبه، وهو يحاوره: يا صديقي، لقد خدع كلاكما بالآخر، رأيت شهرتك الواسعة وصيتك الذائع، وبهرها مظهرك الأنيق ووسامتك، فتصورت ما يحق لها أن تتصور.. ورأيت اهتمامها وجمالها وبراءتها، فتصورت ما يحق لك أن تتصور.

صمت شاردًا، وهو يحس أن وادياً سحيقاً يفرغ فاه بينه وبين دفاء الحياة وتمتعها. ونظر أول مرة بتمعن إلى هناك، إلى الحافة المقابلة البعيدة البعيدة.. ومرت بخياله كومضة إمكانية العبور.. ثم مركبة واحدة، ثمن التذكرة فيها إخلاصه لنفسه وعشقه الأول والأقوى للقلم.. وفكر بمرارة وعجب.. هل أملك هذا الثمن!؟

تراءت له عرائس قلمه، ونبض قلبه، وذكريات المشاعر الحية الحرة المدللة، التي أدمنت ودادته وإخلاصه، ونكهة استفراغ الأحاسيس،

حلوها ومرها، وهي تتسكب من روحه وكيانه على الورق، ولحظات
وساعات وليالي العشق الطويلة للحرف، عندما يغوص في أعماقه
يستنطقه الفكرة والإحساس.. وأيقن، بما لا يدع مجالاً للشك، أنه
أسير ذلك الحب الأبدي، وأنه لا يملك القدرة على المساس به مهماً
كان الثمن ...



زوجة قائد

- ١ -

أبو محجن الثقفي

أصواتهم تملأ أذني، والجلبة تتسلق الهضبة، والليل، وجدران المحبس المحروس، وتناديني.. كل ما في يشتعل، وأنتزع جسدي من الفراش، بل يلفظني الفراش برماً بالحرب العبيثة الضروس التي أخوضها منذ ساعات فوقه.. يموت الحلم المسخ في مهده، وتصحو أثقال كالجبال تشدني إلى الأرض.. أما الأصوات فهي ما تنفك تناديني، ولا تترك لي وقتاً حتى للألم...

جرجرت جسدي الثقيل الذي لا أسكنه إلا وقت النوم.. قعقت قيودي البليدة، فلم أبه لها، ولم يعنني كثيراً أنها ستوقظهم، وربما قلت لنفسي: فلتفعل.. فتح أحدهم مصراع نافذة فأطل الليل كله، وتأفف بصبر نافد: ألا تدعنا ننام؟ ما زال الفجر بعيداً...

ولم أرغب في الكلام، فلبثت في مكاني متموتاً.

كم بيننا وبين الفجر؟! كم بيننا وبين تلك الساعة التي تشهد منذ أيام تحرقي وانسحاقني تحت ضربات مطارق الندم؟ أيتها الجرعات القاتلة.. كل هذا ثمن! كل هذا!! وانخلع قلبي، ﴿فَاسْتَعْفِرْ لَهُ، وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابًا﴾: غفرانك.. غفرانك.. غفرانك..

احتقنت أجفاني، انبعث منها رماد حار واخز، وأحسست أن كلاً منها سور ليس له باب، داخله فيه العذاب، وخارجه ذلك المشتهى المحرم، ذلك الشوق الذي تصميني سهامه، غير مبالية بتحرقى إلى الموت على شفار السيوف، في عناق تبقى لذته في الوجدان خالدة...

أيها الموت.. أريدك هناك.. أريدك معهم.. في تلك الساحة التي تنطلق منها الطريق إلى رضا الله وفردوسه، أريدك خطوة إلى الحياة الحقيقية، إلى الخلد الموعود، إلى إعلاء كلمة الله.. لن تأخذني من هنا كمدًا.. لن تفعل أبداً...

أطلقت عيني عبر القضبان الحديدية إلى السماء، وتجاهلت المرجل الموجه، علقت بكل ما أملك من الإحساس بالقهر والندم والألم، وانصرفت إلى ذلك الصديق الذي أثق به: الآن يا عمرو.. يجب أن تهتدي إلى الطريق. سؤال واحد ينبغي أن تجيبه قبل بزوغ الفجر.. قبل بزوغ الفجر! هل يحتاج الأمر إلى التستر؟! أجل، فسعد هنا.. يا للعة! لو أنه في الميدان لكان الأمر أكثر سهولة.. لكان في مكنتي الهرب إلى الميدان، وليس من الصعب تجنب سعد هناك، حتى إذا ما علمت بتوجهه إلى محبسي وأغلامي.. ولكن! لم لا أقوم بذلك الآن؟ أخرج ليلاً وأعود عند الفجر؟

بقي السلاح والفرس.. أما السلاح فمبذول كثير، ويمكنني أخذ ما أشاء منه بتدبير بسيط، وأما الفرس! فما أجد، لتحقيق حلم يراودني منذ وصلت القادسية، أفضل من هذا الظرف.. البلقاء فرس سعد، الحبيسة مثلي، المشوقة إلى الميدان مثلي، المتحرقة إلى وطء هؤلاء

الأشعار المتطاولين، مثلي.. واثق أنا بأنها في حاجة إلي تماماً، كما أنا في حاجة إليها...

والآن أستطيع التفرغ لتدبير أمر الهرب.. من ذا الذي يقدر على مساعدتي؟

وومضت صورتها كالبرق.. ملامحها السمحة القوية توهي بالثقة، ولكن.. هل يمكن امرأة مثلها أن تعطي نفسها حرية التصرف من دون الرجوع إلى زوجها، وهو القائد، والحاكم هنا؟! ولم لا؟.. أليست أم ولد سعد الأثيرة التي يحرص على اصطحابها في السلم والحرب!

عُرام رغبتني يجرف كل العقبات دون التجربة.. حتى لو لم أنجح، حتى لو لم تستجب إلي توسلاتي، حتى لو علم سعد بما فعلت، فلن أخسر الكثير.. إنها الفرصة اليتيمة التي تبرق في حافات ليل اليأس الثقيل.

الفجر تعفي على شحوبه الفضي الهش شمس الصباح المتقحمة الجسور، تغمر الهضبة المشرفة على السهول وميدان المعركة.. كل همي الآن أن يغطي ضياء الشمس ذلك المنبسط على يمين الباب الفرعي للقصر، وتخرج النسوة للتمتع بدفتها. سعد من نافذته لا يستطيع رؤية تلك المساحة المحاذية للجدار، وعلي التحايل للوصول إلى هناك.. تلك الخادمة العجوز التي تجلس هناك بعض ساعة كل صباح.. ما من وسيلة سواها للوصول إلى زوجة القائد.

جرجرت قيودي أختصر المسافة التي تقطعها المرأتان للقاءتي..
 اقتربتنا واقتربت، وقد نسيت كل شيء حتى عريدة أنفاسي في صدري..
 وقفت أمام زوجة القائد لاهناً، أو متشاغلاً باللهات، لأجمع شتات
 نفسي. وكان حديثاً سريعاً مسروقاً من الأعين والآذان، فهو البلاغ، ولا
 شيء إليه: هل لك إلى خير؟

رمتني بنظرة مستطلعة مستغربة: وما ذاك؟!

- تخلين عني، وتغيرينني البلقاء، فله علي، إن سلمني الله، أن
 أرجع إليك حتى أضع رجلي في قيدي، وإن قتلت استرحتم مني.

لم تكذ عبارتي الراجية تنتهي حتى أدركت مبلغ المفاجأة التي
 أفصحت عن ملامحها.. وانكشمت وقد ملأني الارتباك والندم
 على تسرعي وتطاولي، بل وقاحتي.. ألقت زوجة القائد نظرة أخرى
 متسائلة، فأدركت ما لم تشأ أن تقوله: ما الذي يبرر كمية الثقة اللازمة
 للتفكير فيما سألت! وقرأت خلف الصمت: أنت، كما أعرف، متهم
 بشرب الخمر، ولعل من غير الصواب أن أثق بك. وتحولت عني، في
 مزيج من الإشفاق والحذر والزجر: وما أنا وذاك؟ واستدارت مبتعدة..
 نظرت فلم أر إلا ظهر الخادمة العجوز تتقلقل، لاحقة بسيدتها. ولبثت
 حيث أنا، فقد كانت أغلالي ثقيلة كأعظم جبال الطائف، ولم أستطع،
 وقد غادرتني شحنة الأمل المحيية، زحزحتها.

- ٢ -

سلمى بنت حفصة

- يجب أن تلزم الفراش يا سعد.. أنت هكذا تطيل أمد مرضك.
- أنى لي هذا، والميدان شعلة تتصاعد حتى السماء! والقلب يثب في الصدر حتى يكاد يقوضه! وعبارتك الظالمة تطرد النوم كلما سولت له نفسه الدنو من أجفاني.
- كانت نفثة فجّرتها الغيرة على جند الله، ولم أقصد الإساءة إليك.
- لو كانت هذه الرعدة الخبيثة رجلاً لفلقت رأسه بسيفي.
- يا لسعد ويا لحوارنا الذي مللت!.. لن يترك السطح إلا محمولاً على أيدي الرجال ضعفاً وإعياء.. ما الذي يراه والليلة لا قمر فيها؟!
- أصوات الميدان لا تبدد وحشة الليل، بل تزيدھا.. ولا أحد أبادله الحديث.. ولا نوم يسمح به القلق وجلبة سعد ورجاله. يجب أن أجد مخرجاً من هذه الحالة المرهقة.
- ليس هذا فقط ما يسرق النوم من عيني، فهناك ذاك الفارس الكسير! إلى كم من النذالة والانهازامية والجبن احتجت لكي أصنع ذلك المزيج العجيب من الرجولة والانكسار! وإلى كم من الأيام، وربما السنين، سأحتاج للتخلص من العذاب الذي ملأني به انكساره ووجومه! لو أنني كنت أكثر روية.. لو أنني أتحت له المزيد من الوقت، فربما كان

لديه ما يقوله، وربما كان من الخير أن أجيب ما طلب.. ما العمل الآن، وأنا لا أستطيع لهذا الإحساس بالذنب دفعاً؟!

أعالج فضولاً عجيباً لمعرفة ما آلت إليه حاله، فقد أجد بعض العزاء إذا ما عرفت أنه ليس ذلك الإنسان المرهف، الذي يجرحه ما قابلت به رجاءه من برود وصلف، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟

يا للأرق وما يثيره من أفكار، وما يبعثه من شجون! ويا للوحدة وما تنسج من ملاءات الكآبة والقلق حول الروح والقلب! لعل شيئاً من نسيم ليل العراق البليل يحمل إلى جفني النعاس، فأريح النفس والجسد بغضوة قبل انبلاج الفجر.

يا لليلة! ويا لجلبة أولئك المتمردين المحتجزين!.. كان أحدهم ينشدهم شعراً.. ماذا يقول سجين في معركة لا يجد فيها سيفاً، ولا يمتطي فرساً، ولا يواجه عدواً!.. ليت سعداً يعفو عنهم، ويلحقهم بالمجاهدين، فقد نالوا ما يستحقون من عقاب، جزاء ما أحدثوه من بلبلة وفوضى في صفوف الجيش...

ليتني أستطيع سماع ما يقول ذلك المنشد.. أستطيع ذلك إذا نزلت إلى الشرفة القريبة من محبسهم...

... حسناً من هنا يمكنني ...

أنصت ولا تعقب يا هذا.

حسن.. أكمل يا أبا محجن...

أبو محجن!! ما أعجب هذه المصادفة!

فَلِلَّهِ دَرِّي يَوْمَ أَتْرَكُ مُوثِقًا

وَتَذْهَلُ عَنِّي أَسْرَتِي وَرَجَالِيَا

حَيْسًا عَنِ الْحَرْبِ الْعَوَانِ وَقَدْ بَدَتْ

وَأَعْمَالُ غَيْرِي يَوْمَ ذَاكَ الْعَوَالِيَا

وَلِلَّهِ عَهْدٌ، لَا أَحْيَسُ بَعْدَهُ

لِيَنَّ فَرَجَتْ أَلَا أَزُورَ الْحَوَانِيَا

... لقد سمعتك أيها الفارس.. وما أحسبك إلا قصدت إلى ذلك

قصدًا ...

أما النوم، فما عاد إليه من سبيل، وأما خطئي، فأسأل الله أن يبسر لي السبيل إلى التكفير عنه.

ما مرّ بي سحر، ولا فجر أطول مما مرّ بي في يومي هذا.. لماذا تتضاعف المسافة، ويتطاول الزمن دائمًا بيننا وبين ما نتنظر! لماذا تبتعد الأشياء عندما نمد إليها أيدينا! أيكون ذلك اختبارًا، لتصميمنا وعزيمتنا وصبرنا، نستحق بعده التلذذ بالوصول إلى الغاية!

- ٣ -

سعد بن أبي وقاص

إلى متى ستلازميني أيتها القشعريرة المقيتة؟ أيها الوهن العنيد، ما أضعفني أمامك! أنا الذي أقف أمام جيوش فارس غير

هيّاب.. لا رجل بلا سلاح اليوم إلا أنا، وهؤلاء المتمردون الأغبياء،
وذلك الشاعر السكير الفار من ابن الخطاب...

أين تتوارى تلك المرأة التي لا يمكن تجاهلها!... : سلمى.. أنت
الأخرى أصبحت تدمنين النظر من الشرفات؟

- ومتى كفت عن ذلك ما دارت المعركة! ولكن الليل لا يسمح برؤية
ما يجري هناك.. ألا تلزم الفراش يا سعد؟ يجب أن تبرأ سريعاً،
فقد طال غيابك عن الميدان...

- أنت لا تفكين ترددين ذلك.. كأني بك ما تزالين تتهمينني بالتعلل
بالمرض...

- كم مرة يرضيك أن أعتذر بعد؟ كان موقفاً مرّ بي فيه هاجس
صارحتك به...

- حسن.. لن أستطيع لزوم الفراش الآن.. سأصعد السطح؛ عليه
يسمح برؤية أفضل، فقمر الليلة لا يعد بما ينقع الغلّة...

لقد بتُّ ضيق الصدر نافد الصبر.. أعرف ما يخيفني إلى حد
الهلع.. يا رب السماوات والأرض، منذ يوم الخندق وأنا أحلم بفتح
فارس.. كأنتي أراها، هنا في القادسية، ومضة معول رسول الله ﷺ
وقد ضرب صخرة الخندق، وكأنتي أسمعها، هنا في القادسية، تكبيرته
وهو يبشرنا بفتح فارس.. لقد عاش الحلم معي عشرًا من السنين، فهل
يموت اليوم، وأنا قاب قوسين أو أدنى من تحقيقه!

أهو الظلام يكاد يلبس علي ما أرى!.. أم هو الشوق إلى الميدان
وصهوة البلقاء.. فارس الأمس وفرسه.. لم أكن واهماً إذًا، وهذا الذي
أرى حقيقة، وليس من نسج الخيال أو وهمه...

أي فرس تلك التي تشبه البلقاء هذا الشبه العجيب.. و تماثلها
حتى أكاد أشك في كونها البلقاء عينها. وأي فارس هذا الذي يفعل على
صهوتها الأفاعيل! كأنني أرى فارس ثقيف أبا محجن...

لك الله يا ابن الوقاص.. لقد غادرت الفارس والفرس كلاً في
محبسه وقيده، إنها العلة تلبس عليك المرئيات، وليس الظلام.. سلمى
على حق، وسألزم الفراش متى تحاجز الناس، وما أظن ذلك بعيد،
فقد انتصف الليل.

سلمى مستسلمة إلى النوم، لقد أرهق تواصل القتال، حتى من لا
يباشره، وسأوي إلى فراشي بعد رؤية ابن عرفطة؛ لأعرف ما لم أستطع
استجلاءه من مرقي هذا.

هل تحاجز الناس يا سعد؟

- لست بنائمة إذًا؟

- وأنسى أستطيع، وأنا أسمع قعقة السلاح، وتنادي الفرسان،
واصطكاك أسنانك وورعدتك!

- سأوي إلى الفراش بعد رؤية ابن عرفطة.

- فما كان آخر ما رأيت؟

- إنها جولة شديدة الوطأة، ولكن الله قيض للمسلمين فارسًا ما استطعت أن أتعرفه، أبلى بلاء المتعطش اللفهان، فاحترت في أمره، وظننت فيه الظنون، فقد شبه لي، كما شبّهت لي فرسه، حتى خيل إلي أنني أمام أبي محجن والبقاء.



منشورات رابطة الأدب

الإسلامي العالمية

- ١- من الشعر الإسلامي الحديث، لشعراء الرابطة.
- ٢- نظرات في الأدب، أبو الحسن الندوي.
- ٣- ديوان «رياحين الجنة» عمر بهاء الدين الأميري.
- ٤- دليل مكتبة الأدب الإسلامي في العصر الحديث، د. عبدالباسط بدر.
- ٥- النص الأدبي للأطفال، د. سعد أبو الرضا.
- ٦- ديوان «البوسنة والهرسك»، مختارات من شعراء الرابطة.
- ٧- لن أموت سدى «رواية»، الكاتبة جهاد الرجبي.
- ٨- ديوان «يا إلهي»، محمد التهامي.
- ٩- يوم الكرة الأرضية «مجموعة قصصية» د. عودة الله القيسي.
- ١٠- ديوان «مدائن الفجر» د. صابر عبدالدايم.
- ١١- العائدة «رواية»، سلام أحمد إدريسو.
- ١٢- محكمة الأبرياء «مسرحية شعرية» د. غازي مختار طليعات.
- ١٣- الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني، د. حلمي القاعود.
- ١٤- ديوان «حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاري» د. جابر قمبيجة.
- ١٥- ديوان «في ظلال الرضا»، أحمد محمود مبارك.
- ١٦- في النقد التطبيقي، د. عماد الدين خليل.
- ١٧- الشيخ أبو الحسن الندوي، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.

- ١٨- القضية الفلسطينية في الشعر الإسلامي المعاصر، حليلة الحمد.
- ١٩- د. محمد مصطفى هدارة، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.
- ٢٠- معسكر الأرامل «رواية مترجمة عن الأفغانية» تأليف مرال معروف، ترجمة د. ماجدة مخلوف.
- ٢١- قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم «دراسة أدبية»، محمد رشدي عبيد.
- ٢٢- قصص من الأدب الإسلامي «القصص الفائزة في المسابقة الأدبية الأولى للرابطة».
- ٢٣- أدب المرأة .. دراسات نقدية من بحوث الملتقى الدولي الأول للأدبيات الإسلاميات.
- ٢٤- الآمال صارت آملاً، رواية من الأدب التركي، تأليف د. نور الله كنج، ترجمة د. عوني لطفي أوغلو.
- ٢٥- نحو كوكب الحرية - رواية من الأدب الفارسي، تأليف محمود حكيمي، ترجمة عثمان أيزدبناه.
- ٢٦- مملكة النحل - رواية من الأدب التركي - تأليف علي نار، ترجمة كمال أحمد خوجه.
- ٢٧- أقياس - ديوان شعر - طاهر العتباني.
- ٢٨- الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة - د. كمال سعد خليفة.
- ٢٩ - عقد الروح - ديوان - شعر نبيلة الخطيب.
- ٣٠- المفسدون في الأرض - مجموعة قصصية- فاطمة محمد شنون.



صدر في سلسلة أدب الأطفال

- ١- غرد يا شبل الإسلام - شعر - محمود مفلح.
- ٢- قصص من التاريخ الإسلامي - أبو الحسن الندوي.
- ٣- تغريد البلابل - شعر - يحيى الحاج يحيى.
- ٤- مذكرات فيل مفرور - د. حسين علي محمد.
- ٥- أشجار الشارع أخواتي - شعر - أحمد فضل شبلول.
- ٦- أشهر الرحلات إلى جزيرة العرب - فوزي خضر.
- ٧- باقة ياسمين - قصص للأديب التركي علي نار - ترجمة شمس الدين درمش.
- ٨- أغنية للغيمة البعيدة - شعر - أحمد زرزور.
- ٩- مغامرات عصفور - قصص - عبدالجواد الحمزاوي.
- ١٠- شيما - قصص - حسن القشتول.
- ١١- مدينة الرحمة - مسرحية - محمود عبدالله محمد.
- ١٢- بيض من ذهب - مسرحية - لطفي عبدالمعطي مطاوع.
- ١٣- سجين الهاء والواو - مسرحية - محمد عبدالحافظ ناصف.

● تطلب من رابطة الأدب الإسلامي العالمية:

المملكة العربية السعودية: الرياض ١١٥٣٤ - ص.ب. ٥٥٤٤٦

هاتف: ٤٦٣٤٣٨٨ - ٤٦٢٧٤٨٢ فاكس: ٤٦٤٩٧٠٦

web page adress: www.Adabislami.org

E-mail: info@adabislami.org

المؤلفة في سطور

- فاطمة محمد شنون.
- من مواليد حلب / سورية عام ١٩٥٠م.
- حصلت على الإجازة في اللغة العربية وآدابها، ودبلوم الدراسات العليا من جامعة حلب.
- عملت في التعليم العام.
- شاعرة وكاتبة للقصة القصيرة، وأدب الأطفال.
- صدر لها عدة كتب منها:
 - موكب النور في عدة أجزاء، رواية لليافعين.
 - جلجامش - شعر.
 - معلمتي السوداء الصغيرة جداً - للأطفال.
- المفسدون في الأرض - مجمعة قصصية فازت بالجائزة الأولى في مسابقة الأديبات بالرابطة.
- فازت بالجائزة الأولى في مسابقة نشيد طيبة للأطفال، التي أجزتها مركز بحوث المدينة المنورة لعام ٢٠٠٨م.
- لها العديد من المشاركات في الدوريات العربية، ومنها مجلة الأدب الإسلامي.
- عضورابطة الأدب الإسلامي العالمية.

